فلسفة (١)

نظرية المعرفة

على ضوء كتاب «فلسفتنا» لأستاذي
الإمام السيد الشهيد الأول
محمد باقر الصدر (قدس سره)

حسن الراضي (أبو آدم)



دار المحجة البيضاء



فلسفة

(١)

نظريـة المعرفـة

على ضوء كتاب «فلسفتنا» لأستاذي
الإمام السيد الشهيد الأول
محمد باقر الصدر قدس سره

دراسة موضوعية تحليلية لمختلف الصراع الفكري
بين التيارات والمذاهب الفلسفية المادية
منها الديالكتيكية والميتافيزيقية مع الفلسفة الإسلامية

أبـو آدم
حسن الراضي

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى سنة ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

ISBN: 978-9953-567-47-1



الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com



مقدمة

تفضل بها العلامة الشيخ حسن الصفار

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطاهرين .

تمثل شخصية الإمام السيد محمد باقر الصدر أفضل أنموذج للفقيه المسلم المعاصر، حيث قدم تجربة رائدة في الجمع بين الأصالة والمعاصرة، وفي تحمل مسؤولية الدعوة والدفاع عن مصالح الدين والأمة.

فقد استوعب قيم الدين ومفاهيمه وتشريعاته، بقدرة اجتهادية فائقة، وعلى مستوى الاستنباط وتكوين الرأي في المسألة الفكرية والفقهية.

كما انفتح على تطورات الحياة، وقرأ التيارات الفكرية المعاصرة، في عمقها الفلسفي، ومناهجها الاجتماعية والاقتصادية، ودرسها دراسة دقيقة واعية.

واستطاع أن يكشف مواقع الضعف والخلل في تلك التوجهات، وإنها عاجزة عن تحقيق ما يصبو إليه الإنسان من معرفة حقيقية، ونظام اجتماعي صالح.

وفي مقابل عجز تلك المذاهب الفلسفية المادية، والمدارس الاقتصادية الوضعية من رأسمالية وماركسية، قدم الإمام الصدر رؤية الإسلام الواضحة في منهجية المعرفة، وإدارة الاجتماع البشري، وتنظيم الشأن الاقتصادي.

فكان كتاباه العظيمان «فلسفتنا» و «اقتصادنا» أهم استجابة معرفية إسلامية للتحديات الحضارية المعاصرة من الغرب الرأسمالي، والشرق الماركسي، أبانت للمفكرين الآخرين عمق الفكر الإسلامي وصلابته العلمية، وقدرته على مواجهة أصعب التساؤلات، وأعقد الإشكالات.

كما وجدت الساحة الإسلامية في كتابي «فلسفتنا» و«اقتصادنا» ما كانت تبحث عنه وتحتاج إليه من مضمون علمي فكري، يساعدها على الثبات والصمود في

وجه الحضارة المادية الزاحفة، المدججة بالقوة العسكرية والتقدم الصناعي والتطور التكنولوجي.

فقد تسلل الشعور بالضعف والهزيمة إلى مساحة كبيرة من ساحة الأمة، وظن البعض أن هذا العصر سيشهد نهاية الفكر الديني بشكل عام، والفكر الإسلامي بشكل خاص.

لكن الروح الإسلامية المتجذرة في أعماق النفوس، وما ينطوي عليه الإسلام من قوة الحق كدين إلهي، والدور الذي قام به العلماء المجاهدون، كل ذلك أدّى إلى قلب المعادلة، وتغيير موازين القوة لصالح الإسلام العزيز.

ويأتي السيد الشهيد الصدر في الطليعة من العلماء الربانيين المجاهدين، حيث أمدّ الأمة بعطائه العلمي المميّز، الذي ألهمها الثبات والصمود، وتجاوز بالفكر الإسلامي مرحلة الدفاع إلى مستوى الهجوم الكاسح على مواقع الفكر الآخر.

وشاء الله تعالى لهذا الفقيه المجدد، أن يكتب بمواقفه الرسالية، وبدمه الزكي ملحمة أخرى للثبات والمقاومة تتوج ملاحمه الفكرية العلمية الرائدة.

لقد مضى أكثر من نصف قرن على صدور كتابي «فلسفتنا» و «اقتصادنا»، وحصلت تطورات فكرية وسياسية واجتماعية كبيرة على الساحة العالمية، لكن الكتابين لا زالا في موقع الصدارة، بل إن التطورات المختلفة جاءت مؤكدة وداعمة لما أورده الشهيد الصدر من نقد متين للمذاهب المادية، فقد تهاوت صروح الماركسية، وتصاعدت أزمات الرأسمالية، واستعادت الأمة الإسلامية ثقتها بدينها، وتألق الإسلام كمشروع حضاري واعد.

وبين يدي القارئ الكريم جهد معرفي مبارك، قدمه أحد تلامذة الشهيد الصدر، المنتهلين من نمير علمه، والذين منحهم الله تعالى فرصة وشرف الاقتراب من شخصيته الفريدة، ومعايشة خصائصه الأخلاقية العالية.

إنه الأخ العزيز العلامة الشيخ حسن الراضي حفظه الله تعالى، والذي يقدم في هذا الكتاب قبسات من فكر الشهيد الصدر، ضمن دراسة موضوعية تحليلية لأبعاد الصراع الفكري بين التيارات والمذاهب الفلسفية المادية،

وبين الفكر والفلسفة الإسلامية، على ضوء كتاب «فلسفتنا» .

وتتميز هذه الدراسة بوضوح التعبير، وحسن الأسلوب، ورشاقة العرض. توّجها الشيخ المؤلف بكتابة سطور مضيئة عن حياة الإمام الشهيد الصدر، رضوان الله تعالى عليه، موثقاً فيها بعض صور ومشاهد علاقته بالسيد الشهيد، بعبارات وجدانية صادقة، نابعة من أعماق قلبه، تعكس مدى حبه وعشقه وإخلاصه للأستاذ الكبير.

لقد أنعم الله تعالى على أخي العلامة الشيخ حسن الراضي بنعم عظيمة كثيرة، في طليعتها فرصة القرب من العلماء الصالحين المصلحين، والتزود من فيض علمهم، واقتباس مكارم أخلاقهم، والتعرف على خصوصيات حياتهم، كالشهيدين السيد محمد باقر الصدر والسيد محمد باقر الحكيم.

وقد رأى هؤلاء العلماء في الشيخ الراضي سمة التقوى والصلاح، والطيب والاستقامة، فأولوه ثقتهم، واعتمدوا عليه في أداء بعض مهامهم الخاصة، التي لا يقوم بها إلا ثقة مخلص مستعد للبذل والتضحية.

ومن خلال معرفتي للشيخ الراضي منذ أكثر من ثلاثة عقود من الزمن، لمست انعكاس تربية أولئك العلماء الربانيين على شخصيته وسيرته، فهو حريص على التزام نهج التقوى، حذر من الوقوع في مزالق الأهواء والخلافات والصراعات، مهتم بخدمة الدين والمجتمع، قريب من الناس بتواضعه وأخلاقه، داعم ومشجع لجهود الإصلاح ومواقف المصلحين.

أسأل الله تعالى له المزيد من التوفيق والتسديد، وأن ينفع بكتابه هذا، ويجعله في سجل أعماله وميزان حسناته، إنه تعالى ولي التوفيق.

والحمد لله رب العالمين.

حسن الصفار

12 محرم الحرام 1432 هـ

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي لا تبلغ الخلائق كنه حمده، وتعجز عن أداء شكره في نعمة واحدة، فضلاً عن شكره لأنعمه الجمة التي لم يحط خليفته (الإنسان) في أرضه بعظمتها وعددها، بل ولن يبلغ شأوها وقدرها.

ثم الصلاة والسلام وأزكى التحيات على رسوله الخاتم، والنور الساطع والضياء اللامع والرحمة المهداة، والبركة المزجاة، نور الأبصار وطبيب النفوس، ودواء القلوب محمد بن عبد الله ﷺ.

وعلى آله وعترته مصابيح الدجى وأعلام التقى وقادة العباد وساسة البلاد الذين اجتباهم الله تعالى واصطفاهم وطهرهم من الدنس والرجس «تطهيراً» وأصحابه البررة.

أما بعد:

فقد وفقني الله تعالى بمنه ولطفه وهو المنان دوماً، أن أقدم لك أخي القارئ الكريم! وريقاتي الخجولة بما تحمل في طياتها قبساً من سناء مدرسة السيد الأستاذ الإمام الشهيد الصدر الأول ﷺ، مدرسة الفكر والمعرفة بمعناها الشامل والواسع الذي شملت كل الآفاق والميادين البشرية.

لم تعد مدرسة الإمام الصدر ﷺ مدرسة تقليدية، وإنما هي لها من الشمول والانفتاح المقدس، ما يجعلها في مقام التمثيل لفكر الإسلام الأصيل، الذي هو لسان الثقلين (الكتاب والعترة).

إن مدرسة الإمام الصدر ﷺ هي روح الإسلام وفكره وثقافته وسعته، لكل زمان ومكان، وكل شرائح المجتمع البشري، وتنوع ثقافاته وألوانه وطبائعه، فإن مدرسته الفكرية الثقافية الإسلامية الأصيلة قادرة أن تستوعب كل الأطياف، وتغذي جميع الأذهان وبقناعة، لما تحمل من مخزون علمي هائل عميق أصيل تمتد جذوره إلى شجرة

الإسلام وترتبط ارتباطاً عضوياً بجذور العقل السليم والكتاب الكريم والسنّة المقدسة.

إن الأدوات التي تحملها هذه المدرسة العملاقة هي أدوات ولبنات، قد أشاد الرسول ﷺ وأصحابه الهداة بها صرح الإسلام الشامخ الذي كانت إليه تهفو القلوب من ﴿كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[1]، ووضع القياصرة والأكاسرة بكل سرور ومحبة تيجان جبروتهم من أبوابه الواسعة ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ❖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾[2].

إنها في أفكارها وعلمها وقوتها وصلابتها مدرسة من مدرسة محمد وعلي والصحابة الأبرار الكماة عليهم السلام.

إن الإمام الصدر قدس سره تمكن بهذه الروح الأصيلة أن يبارز في ميدان العلم والفكر والقلم علماء ودعاة

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٧.

(٢) سورة النصر، الآيتان: ١-٢.

ومنظري الرأسمالية، والماركسية، خصوصاً منها (الديالكتيكية) الجدلية بزعامة (هيجل وكارل ماركس) الفيلسوفين، الذي أطاح بنظريتهما في المعرفة، والمفهوم الفلسفي للعالَم، وجعلها تحت عاصفة فكره الأصيل كورق الخريف تراه مصفراً ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾[١].

وهكذا قد أتى على جميع الفلسفات القديمة والحديثة والنظريات منها المادية والميتافيزيقية، فلم تسلم كل هذه من مجهره ومرصده الدقيق صنيع عناية الله تعالى والمؤزر بالتوفيق والنصر غالباً ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ﴾[٢]، قد آتاه الله «الحكمة وفصل الخطاب»[٣]، ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[٤].

فهذه نظريات وفلسفات (أفلاطون في مُثله واستذكاره، وأرسطو في مصادر التصديق عنده، وهيجل وكارل

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٦.

(٣) ص ٤٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

ماركس في جدلياتهما الديالكتيكية الخاوية، وجون لوك، وديكارت)، وغيرهم كثير من عمالقة النظريات المادية والفلسفية، قد تهاوت وسقطت تحت يراعه الذي تحول إلى بحر موسى عليه السلام فأغرق نظرياتهم وترك أقلامهم تطفو على سطح أوراقهم لتكون حجة عليهم ومَن رام وردهم، وحجة لصدر العلم والتقوى ومَن شرب من معينه الرقراق الذي لا ينضب بقدرة الله تعالى.

إن فكر هذا المقدس القديس قد تحول في ميدان المناظرة والمجادلة الصادقة مع هذه النظريات من عمالقة الفكر والفلسفة في القديم والحديث، تحول فكره الثاقب بعين الله سبحانه كعصى موسى عليه السلام تلقف ما يأفكون، بعد أن خلقوا من نظرياتهم دستوراً ومنهجاً يكرس قيمة المادة الصماء، وجعلوها تسير الكون وهي المبدِعة للعالَم وحتى الإنسان هو خاضع لنظامها في وجوده وتفكيره، لأنه جزء من العالم، وليس هناك شيء خارج المادة!!.

وهكذا ﴿**فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ**﴾[1]، وأرادت الأرض أن تنتصر على

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٤٤.

السماء بذلك، والظلمة على النور، ومخالفة القوانين والسنن الإلهية ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾[١]، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾[٢].

إلا أن مارد الفكر الأصيل ورائده برز وانتفض من قمقم الفرات بجوار الأنزع البطين علي عليه السلام باب مدينة علم رسول الله صلى الله عليه وآله، ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾[٣].

إنه النصر الساحق الذي حققه أستاذنا الإمام الصدر قدس سره في ميادين المعرفة على جميع المذاهب المادية والفلسفية الملحدة، وتحت موازين العلوم الحديثة النظرية والتجريبية، والعقلية الفلسفية الرصينة سواء على صعيد النظريات الاقتصادية، أو الفلسفية، أو الاجتماعية، أو

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٣.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

(٣) سورة الشعراء، الآيات: ٤٥-٤٨.

السياسية، حتى لقد كان يخرج من كل هذه الميادين على أقرانه منتصراً يحمل لواء الإسلام، وصوته الملائكي قد ملأ الدنيا ثقة واعتزازاً «فلسفتنا، اقتصادنا، مجتمعنا» مما جعل الإنسان المسلم في موضع افتخار واعتزاز بما انكشف له من عظمة مفاهيم الإسلام على أيدي عمالقة الفكر والمعرفة في شتى ميادينها، كابن رشد، وابن سينا، والفارابي ، والمفيد، والإمـــام الخميني ، والخوئي، والمرتضى، والشيخ الأنصاري، والإمام الحكيم، والإمام محمد باقر الصدر الشهيد الأول قدس الله أسرارهم، ومثلهم كثير جداً، وإنما ذكرت هؤلاء العظماء على سبيل الذكر لا الحصر.

إن الحديث عن فكر ومدرسة هذا الرجل القديس لا تستوعبه صحائف أو صحف، فضلاً عن وريقات خجولة فضحها يراعي الذي كان في شوق شديد أن يصب عَبَراته أبحراً من أماقيه لينفس عن حرقة قلبه، وصبابة فؤاده، ويسكبها على صفحة سويداء وجدانه، فصرت

أسيره وبناني طوع إرادنه، وقد أخذ من دموع عيني وصبابة فؤادي محبرته ليخط بها يراعه على صفحات قلبي، ويسطر بعض مكارم هذا القديس الذي ضاق به مجتمعه ولم يعرف شأنه وقدره أبناء زمانه.

إني لست في وارد أن أؤبن هذا العملاق وأن أُؤرخ حياته وشخصه الكريم، فإنّ عطاءاته وفيوضات مكارمه، ومدارك علومه وآرائه التي ناصرت الإسلام ورفعت رايته، وشدت من أزر المسلمين وعزهم هي أبلغ وأكبر من كل تأبين، وهي ذات قيمة عالية عند الله تعالى تؤبنه.

ولكن ما أكتبه أنا وأمثالي عنه ممن رآه وعايشه عن قرب، ففي بعض جوانبه يتسم بالدراية لا الرواية، وما كان منه عن رواية وهو قريب منه زمناً وَحَدثاً، وهذا بمجموعه يختلف من حيث القيمة والمردود النفسي على القارئ أو السامع، أو منهما معاً، ممن يتلقى الخبر ممن لم يعايش هذه الشخصية معايشة احتكاك مباشر، أو لم يكن في زمانه.

وخلاصة القول وزبدته أني أندب إخواني الأجلاء حفظهم الله تعالى ممن عاشوا شخصية هذا القديس وأشربوا في معالم وملامح حياته بكل أبعادها أو بعضها أن لا يألوا جهداً في إبراز كل معطيات أدوار حياته المتنوعة، ومعالم شخصيته المشرقة، فإن في كل هذا مردود إيجابي للأمة، ومفخرة ترفع رأسها في الحاضر والمستقبل، وهو تراث وكنز لا يجوز بحـال أن تفرط فيه الأمّة.

وما هذا القديس وأمثاله من أبطال وعمالقة الفكر والقلم والسيف الذين ترجلوا التاريخ وشمروا عن ساعد الجد والإباء إلا إشراقة نور وهدى للأمة وعزّها يجب أن تمجدهم، فإنهم ذهبوا بعين الله وفي ذمة الله والتاريخ **﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾**[١].

---

(١) سورة القمر، الآية: ٥٥

قد أغناهم الله تعالى عن كل الدنيا وما فيها بمنه وفضله.

إن لأستاذنا الشهيد الصدر الأول تتئُ مزايا في دنيا العلم والحياة تتمتع بها شخصيته العملاقة قل نظيرها إلا في عالم العظماء والأفذاذ حفظهم الله وحماهم برعايته، وأنا سأروي بإشارة خاطفة بعضاً منها:

١- علمه وفكره الثاقب الذي دل عليه الزمن ومحيطه، وأضداده الذين انحنوا له بإكبار وإجلال، وما ثروته العلمية التي تُدار في بعض جامعات العالم، ونظرياته الفلسفية والاقتصادية التي أطاح بها صروح المادية والفلسفات الماركسية (الديالكتيكية) القائمة على الجدل والتناقض، إلاّ خير دليل على ذلك، ومن أراد أن يعرف عمق ما أقول فعليه أن يراجع (فلسفتنا، واقتصادنا) إن كان من أهل الاختصاص ، ليرى العجب العجاب ، ويلمس الإخلاص والتقوى الذين وأمثالهما من ومضات حروفه وإشعاعات صدقه ووفائه للإسلام، فهو كأسد

الله حمزة في شجاعته وإقدامه، وتجد فيه نفحة من علي ﷺ في شدة مراسه في ذات الله، وعلمه الجم، فقد بلغ رتبة الاجتهاد وهو في العقد الثاني من عمره، وبلغ بلوغه الشرعي ولم يحتج إلى التقليد لأنه بلغ وهو مجتهد[١]. فكانت نظريات منظري الاقتصاد والفلسفة، تتهاوى تحت يراعه المبارك، ويلقفها لسان قلمه، فكأنه ونظرياتهم عصى موسى وحبال السَّحَرة ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[٢].

وله مؤلفات ضخمة وقيّمة تربو على الثلاثين[٣].

٢- عبادته :

كان عابداً يتمتع بحضور قلب وروية عالية وملتزماً بالمستحبات وكثير من الأوراد، وكان ملتزماً بصلاة الليل

---

(١) من مقدمة فلسفتنا للسيد العلامة الحجة السيد محمد الغروي أول تلامذة الإمام المقربين له بتصرف، ص ٢٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١١٧.

(٣) من مقدمة فلسفتنا، الطبعة الثالثة ١٤٣٠هـ ، ص ٣٩.

في خلوته مع ربه سبحانه، وله تقديس لأهل البيت عليهم السلام ينم عن معرفة عالية بمقامهم الرفيع في نفسه، فكان ملازماً لزيارة الإمام الحسين عليه السلام في كل ليلة جمعة، وفي كل مناسبة بالرغم من كثرة مشاغله، وله زيارات لعلي عليه السلام في غالب الأيام قبيل الظهر وهو في ذلك كله خشوع وخضوع وبكاء، وكلمات تخرج من صميم وجدانه ضارعاً إلى الله سبحانه بفرج الإمام المهدي (عج) وسلامة المسلمين وقوت شوكتهم، وفي عمرته الرجبية عام ١٩٧٨م حينما زار قبر جده والأئمة عليهم السلام، استدبر القبلة ووقف عند وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنشأ الزيارة من عنده مؤكداً فيها (تبليغه الرسالة، وتحمله للجهاد والصعاب في سبيل الله ومضحياً براحته في سبيل المسلمين)[1].

ويقول السيد الحجة العلامة الغروي حفظه الله تعالى: (كما كان يذكرنا بأن أرض المدينة المجاورة لمقامه

(١) من مقدمة فلسفتنا للسيد العلامة الحجة السيد محمد الغروي من تلامذة الإمام المقربين له بتصرف، ص ٢٩.

الشريف كان موطأ أقدام رسول الله ﷺ والمسلمين الأوائل الذين صنعوا النصر متحملين الأذى والمشاق في سبيل الله، وإن هذه الرسالة المباركة لم تصلنا بالهين والسهولة)[1].

وقد لمست فيه ﷺ توجهاً عجيباً، فقد كان يطيل في أداء الصلاة الفريضة جماعة، إذ صليت خلفه حينما كان يصلي في حسينية (الشوشترية) بمحلة العمارة النجف الأشرف في السبعينيات.

٣- زهـده :

إنك لتعجب حينما تقارن بين عظمة علمه وإبداعه وزهده وإعراضه عن الدنيا وهي بين يديه، وهذا من أسرار عظمته.

فقد كان زاهداً من الطراز الأول، وهو في زمن غير زمن الزهاد الأوائل.

(١) المصدر السابق، ص ٢٩.

إنه يتعمد البساطة في ملبسه ومشربه، وقد كيّف أفراد أسرته على ذلك، ولا يرضى إلا مواساة أبسط أفراد الطلبة، وهم في الغالب تحت خط الفقر، وأنا سأنقل لك وللتاريخ نماذج ضئيلة تدل على ذلك:

أ - يخرج الشيخ محمد رضا النعماني يوماً إلى السوق ليشتري بعض الضروريات وقد صحبه السيد جعفر وكان حينها صبياً دون العاشرة، ويعود أدراجه إلى البيت ومعه شيء من (الموز) فاعترض عليه السيد وبشدة، وهذا خلاف طبعه ودماثة أخلاقه قائلاً من أمرك بذلك وهل أن الناس في بيوتهم يأكلون (الموز) ؟

فاعتذر الشيخ بأن جعفراً طفل، ونفسه هفت على الموز!!

ب- كنت والحاج كاظم عبد الحسين حفظه الله تعالى من أهل الكويت جارنا في حسينية السبطين عليهما السلام بالسيدة زينب عليها السلام دمشق الشام على إفطار عندي، وقد تناولنا الحديث عن السيد وأخلاقه، وكنت أنقل له مشاهداتي عنه

ﯦ وأخلاقه وزهده المثالي، فقال لي الحاج: أنا عرضت على السيد مبلغاً ليشتري له بيتاً فأجابني أن المال الذي تعطيني إياه سأجعله رواتب للطلبة، ثم قال لي: عدت بعد مدة من الزمن وقلت للسيد: أنني سأشتري لك داراً من أموالي الخاصة لا من الحقوق الشرعية. فأجابني قائلاً: إنْ تملّك كل الطلاب بيوتاً فأنا آخر من يتملك !!.

وفعلاً لم يملك عقاراً، إذ عاش طيلة حياته في بيوت مستأجرة، وآخرها دار الشيخ المماقاني ﯦ في محلة العمارة غرب حرم الإمام علي ﯢ.

جـ- لم يترك في داره شيئاً من حطام الدنيا، وخصوصاً في ما يعود إلى الأموال العامة، بعدما علم أن المجرم صدام سيقتله ويبلغ بذلك درجة الشهادة، أمر بإخراج تلك الأموال إلى خارج العراق، فأخرجتها بيدي، وأخرجت أيضاً محاضراته في التفسير الموضوعي بصوته الشريف التي ألقاها في جامع الطوسي أواخر عمره الشريف، وكذا أخرجت خطابه بصوته المبارك

للشعب العراقي سنّةً وشيعةً عرباً وتركماناً وأكراداً والذي جاء فيه: (يا أبناء أبي بكر وعمر يا أبناء علي والحسين...) وذلك أيام الإقامة الجبرية والحصار الظالم عليه في منزله، وقد حقق الله ذلك على يديّ بفضله ومنه بعد أن استلمت كل ذلك بواسطة المجاهد العلامة: الشهيد السيد محمد علي الحائري (قدس) أخ آية الله السيد كاظم الحائري حفظه الله، والمرحوم العلامة المجاهد السيد عبد العزيز الحكيم (قدس) وقد أخرجت كل ذلك حسب وصية الإمام الصدر (قدس) خارج العراق بواسطة الكويت.

د - قد رأيت في بعض مكاتباته لولده الوحيد من الذكور السيد جعفر الذي لم يتجاوز الحادية عشر من عمره حين استشهد والده ﭬ يقول له ما مضمونه: إنني لن أورث لك شيئاً من متاع الدنيا، كما أن أبي لم يترك لي شيئاً من ذلك !!

إنه الزهد الصادق الذي سرى في كل كيانه ووجدانه، إنك ترى في هذا القديس سلوك محمد ﷺ وعلي عليه السلام وأصحابه البررة بامتياز.

إنه زهد من الطراز الأول في عالم اليوم اليوم اليوم!!

٤- أخلاقه :

إن من يملك الصفات الآنفة الذكر ومنها الزهد عن وعي وروية، فمن نافلة القول والمقال انه يملك أخلاقاً، إنه آية في الأخلاق والتواضع كما غيره كثير من مراجع الدين العظام والحمد لله.

إنه كله ابتسامة وبشاشة تخجل النسيم في رقته، يبش ويهش في وجه الصغير والكبير، وهو في ذلك مع كل شرائح المجتمع على حد سواء.

إنه مليء بالحنان والعاطفة الجياشة بصدق وهو في كل ذلك من الجميع على مسافة واحدة، يتمثل ويمثل رسول الرحمة (وهو فينا كأحدنا) وأنت لا عليك إلا أن تقرأ بعض أخلاقه فيما ما يلي:

أ- إنني وإن نسيت لا أنسى مقولته لأبي رحمهما الله تعالى بعد أن جمعت بينهما في حرم الإمام الحسين عليه السلام

في النصف من شعبان عام ١٩٧٨م حينما احتضنه وضمه إلى صدره الشريف ووشحه بابتسامته العذراء وكلماته الملائكية قائلاً: (الشيخ حسين وحسن ولداي وقرة عيني) إن من يقترب منه يرى كنزاً ولذة تنعش قلبه، وحناناً أبوياً صادقاً لأبناء أمته.

ب - نقل لي الأستاذ الحاج محمد علي قهوجي حفظه الله، وهو يعمل في سفارة جمهورية إيران الإسلامية بدمشق منذ ثلاثين سنة تقريباً، أنه كان مع أخيه الأكبر في محل سمانة (غذائية) في سوق العمارة بالنجف الأشرف وكان يمر عليهم السيد قدس سره في طريقه ذهاباً وإياباً، وقد صادف في يوم أن اللبن الناشف قد سقط من الطّاولة على الأرض، وفي هذه الأثناء مرّ السيد قدس سره بطريقه، فسأله أخي عن الحكم الشرعي لهذا اللبن الواقع على الأرض، فأرشده السيد وذهب، ثم بعد دقائق أرسل السيد خادمه، وبيده مبلغاً من المال، فسأله أخي لماذا؟ فأجاب الخادم أن هذا عوضاً عما خسرتم في اللبن، فأخذنا المبلغ وإذا به يساوي قيمة كل اللبن مرتين !!

إنه خلق نبوي بعد خلق القرآن الكريم، الذي يقول تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[١]، وقال ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢].

جـ- اهتمامه البالغ بشؤون الأمة ورفعتها، والحفاظ على العلم والعلماء، خصوصاً حاضرة العلم النجف الأشرف بواحتها الدينية .

فإنه أيام التسفير الغاشم والعبث بالحوزة العلمية من قبل النظام البائد عام ١٩٧٠م و ١٩٧٥م وتسفير العلماء والمجتهدين لإجهاض منعة الأمة بكسر شوكة علمائها انتفض رجل الأمة، إنه أمة في تطلعاتها وهمومها وآلامها وآمالها ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً﴾[٣].

إن أخلاقه وانقطاعه إلى الله تعالى كانا يأبيان عليه الجلوس في البيت ويترك قلب الأمة النابض (الحوزة العلمية) لعبة بأيدي العابثين، لتكون الأمة جسداً بلا روح.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٢) سورة القلم، الآية: ٤.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

فما كان منه بعد رحيل الإمام السيد محسن الحكيم ﵀ عام١٩٧٠م إلا زيارة المراجع والمجتهدين آنذاك لتوحيد الموقف ولم الشمل في استخراج فتوى بحرمة الخروج والانصياع لأوامر النظام.

ومن المعلوم أن خلاف هذا الأمر وخروج العلماء من النجف قد يكون لصالح مرجعيته ﵀، ولكنه ليس في وارد هذه الأطر الضيقة البخيسة!

د- شجاعة وإباء.

إنه شجاع في محاربة عدوه الداخلي والخارجي، لقد تمكن ﵀ من تأديب نفسه وترويضها قبل تأديب غيره، وله في هذا الجانب براعة وتوفيق باهر لصدق نيته مع الله، وقد ألمحت شيئاً من ذلك في زهده آنفاً وفي حمل هموم الأمة.

إنه أول من أيّد الثورة الإسلامية في إيران من المراجع خارج إيران وفي داخل العراق بالخصوص في وقت لا يتمكن فيه أحد أن ينبس ببنت شفة، فقد رفع صوته بالمناصرة والتأييد وقال قولته المشهورة: (ذوبوا في الإمام

الخميني كما ذاب هو في الإسلام) ووضع كل مقدراته تحت رغبة الإمام تتش وقال ما مضمونه: لو أرسلني عاملاً في إحدى القرى لذهبت!

وهو المرجع الديني، وهو الذي يعيش التهديد بالقتل والإبادة، وهذا ما حصل بالفعل، فقد اعتقل فجر يوم الثلاثاء ١٧ رجب ١٣٩٩هـ الموافق ١٩٧٩/٦/١٢م وقد أخبرت بذلك العالمة الفاضلة أخته الشهيدة آمنة بنت الهدى رضوان الله عليها حين وجهت خطابها صباح ذلك اليوم لعلي عليه السلام باعتقال أخيها، فانتشر الخبر حينها وقرر تلامذة الإمام الصدر تتش وأعرف في مقدمتهم الحجة العلامة الفاضل السيد علي أكبر الحائري أخ آية الله السيد كاظم الحائري حفظهما الله، والسيد صدر الدين القبانشي، وتم الاتفاق على الحضور والاجتماع وقراءة القرآن ودعاء الفرج عند الساعة العاشرة في الصحن الحيدري جهة القبلة، انطلقنا في لمة يسيرة من رجال الدين أقل من أصحاب بدر في جو معقد حتى الأنفاس تكتمت فيه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾[1].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٠.

وحصل الاصطدام مع رجال الأمن حين خرجنا من الصحن الحيدري عند مؤسسة الأرزد باك في أول شارع الإمام الصادق عليه السلام، وعين الله ترعانا حتى دخلنا سوق الكبير ونحن نطالب بإطلاق سراح الإمام الصدر قدس سره وتعزيل السوق احتجاجاً.

وتحت محاصرة التظاهرة في السوق الكبير بإطلاق النار وانقضاض جلاوزة النظام، اعتقل من اعتقل وجرح من جرح، «وجرى القضاء لهم بما يرجى له حسن المثوبة»[1].

وجرحت حينها ولكن الله تعالى خلصني من محاولات الاعتقال أكثر من مرة:

الأولى: عند المسجد سوق المسابك وجرحت حينها وسالت دمائي.

الثانية: في شارع الإمام الصادق عليه السلام بعد أن سلمت من الأولى وقعت في الثانية بمحاولة كسر يدي واعتقالي وكان هذا ديدنهم في الاعتقال حينها إلا أن الله تعالى قد خلصني ونجاني بفضله ومنّه، ولغاية وشأن كان يريده سبحانه، وقد أظهر لي ما خفي علي أمره بعد ذلك.

---

(١) من دعاء الندبة.

الثالثة: وكانت هذه المرة التي نجاني الله تعالى فيها من قبضة اعتقال المجرمين.

وذلك بعد أحداث النجف الأشرف وتظاهرة ١٧ رجب ١٣٩٩هـ التي أجبرت النظام على إطلاق سراح الإمام الصدر ﭥ في نفس اليوم قهراً، ذهبت في تلك الظروف إلى كربلاء أكثر من مرة أيام الحصار والشدة، وولد لي حينها في ٧ شعبان ١٣٩٩هـ ولدي الشيخ محمد (أبو مهدي).

ومنها في محرم الحرام أيضاً حين اشتد الحصار على الإمام الصدر ﭥ سكنت في دارنا قرب حرم العباس ﮥ وإذ بأزلام النظام ليلة العاشر من محرم الحرام ١٤٠٠هـ تسوروا عليّ الدار ليلاً من سطحها فأخبرتني بذلك زوجتي أم مصطفى، وقالت لي: **﴿إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾**[1].

فخرجت منها خائفاً أترقب لحوق القوم بي وأقول متمتماً: **﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾**[2]، وهذا ما تحقق لي بحمد

---

(١) سورة القصص، الآية: ٢٠.

(٢) سورة القصص، الآية: ٢١.

الله سبحانه، حيث وصلت المخيم حينها (مخيم الإمام الحسين عليه السلام) برجليَّ راكضاً في نَفَسٍ واحد عند إخواني وأهلي من الزوار، كان منهم ابن عمتي (الحاج سلمان العبد الله) وبعد أن قصصت عليهم القصص قالوا لي: **﴿لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾**(١)، **﴿لاَ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى﴾**(٢).

فله الحمد دائماً على كل حال متى قلت له الحمد، فلا ينقضي حمدي وشكري له ما دام لي نَفَسٌ ورمشة عين، إلى أن تَأخُذَني منه سِنَة أو نوم، أو يأخذني إليه فتحمده ذرات تراب قبري !

هـ- الخاتمة الطيبة :

استجاب الإمام السيد الصدر الشهيد الأول لنداء ربه يوم الثلاثاء أو الأربعاء ٢٢ أو ٢٣ جمادى الأولى ١٤٠٠هـ الموافق ٨ أو ١٩٨٠/٤/٩م(٣)، وهو بعد لم يكمل العقد

---

(١) سورة القصص، الآية: ٢٥.
(٢) سورة طه، الآية: ٧٧.
(٣) محمد باقر الصدر السيرة والمسيرة، أحمد عبد الله أبو زيد، ج٤، ص ٢٨٢.

الخامس من عمره الشريف، حيث كانت ولادته الميمونة ٢٥ ذي القعدة ١٣٥٦هـ لموافق ١٩٣٥/٣/١م محلقاً في أجواء الشهادة ومتسربلاً وشاحها الإلهي في جنان الخلد.

إنها الحياة التي لا تعب ولا نصب فيها، إنها حياة الدوام والسعادة الأبدية **﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾**(١).

﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾(٢).

﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ❖ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً﴾(٣).

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ❖ عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾(٤).

﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾(٥).

---

(١) سورة القمر، الآية: ٥٥.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٥.

(٣) سورة الإنسان، الآيتان: ١٢-١٣.

(٤) سورة الإنسان، الآيتان: ١٧-١٨.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

﴿... وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾[١].

﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاء مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾[٢].

إنها والله نفسه الطاهرة من النفس المطمئنة التي قال الله تعالى فيها: **﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾**[٣].

إنه لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بعد أن دخل معترك الجهاد وشمر عن ساعد المواجهة، وطلق الدنيا ثلاثاً لا رغبةً له بالعودة إليها، فكان في مواجهة الطاغوت يهزأ بكل ألوان جبروته وتهديداته حتى الموت بعد أن أمضى ما يزيد على عشرة أشهر في منزله تحت الإقامة الجبرية، إذ قطعوا عنه جميع الإمدادات وأجروا المياه تحت الدار كالطوفان ليسقطوها على ساكنيها ومناه صدّام بكل مقدرات الدولة

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٢١.

(٢) سورة الواقعة، الآيات: ٢٨-٣٤.

(٣) سورة الفجر، الآيات: ٢٧-٣٠.

ونعيمها إن مال عن خطه الجهادي ولو بأدنى صورة من ذلك وكان يقول قدس سره في جوابه على رسالة صدام بعد وعده ووعيده له بما فحواه: (وهل لديك شيء أقسى من الموت تهددني به فإني لا أخشاه !).

فالسلام عليك سيدي أبا جعفر بورك لك ولأمتك يوم مولدك، ويوم حييت وعشت القرآن والسنّة الصادقة في سلوكك ونضالك، ويوم رحلت من الدنيا إلى ربك حياً محلقاً في سماء الشهادة مع الشهداء والصديقين والنبيين والأئمة الطاهرين عليهم السلام ويوم تبعث حياً.

وقد ترك السيد المقدس (رضوان الله عليه) لنا ثروة كبيرة تتمثل في بعدين:

الأول: في تلامذته، فقد خرَّجت مدرسته المباركة علماء ومجتهدين ومراجع أفذاذ منهم على سبيل الإشارة لا الحصر:

١- آية الله العظمى المجاهد السيد محمد صادق الصدر الشهيد الثاني قدس سره وهو من المراجع الكبار، له باع طويل في فنون الجهاد كأستاذه الامام الصدر قدس سره وهما في جهادهما

(تعدد أدوار ووحدة هدف) وحينما تقاطعت مصلحة السلطة الغاشمة وأحست بالخطر مع أهدافه ونضاله قامت باغتياله ونجليه ٤/١١/١٤٢٠هـ- ٩ شباط ١٩٩٩م وللسيد الشهيد ﵀ إنتاجات علمية واسعة وعميقة في التاريخ والفقه، والأصول وفي علوم أخرى هي موضع اعتزاز الأمة الإسلامية .

وكنت أقرأ له في أواخر السبعينات، ومنها موسوعة الإمام المهدي (عج) وهي جديرة بالدراسة والاعتزاز لعمقها ودقة تحليلاتها العلمية.

فالسلام عليك يوم ولدت ويوم استشهدت ويوم تبعث حياً.

٢- العلامة الحجة المجاهد الشيخ محمد علي التسخيري وهو مؤلف وكاتب بارع ومن دعاة الوحدة والتقريب وموضع اعتماد الإمام السيد الخامنئي في مسؤولية ذلك.

٣- العلامة الفاضل المجاهد الشيخ حسن عبد الساتر كان رئيس القضاء في لبنان وله دورة تقرير أبحاث الإمام الصدر ﵀ في علم الأصول راقية عالية جداً، وللشهيد الصدر ﵀ معه مكاتبات.

٤- العلامة الفاضل الحجة الشيخ حسن طراد من علماء لبنان المبرزين .

٥- أستاذي: آية الله الفذ المجاهد الشهيد السيد محمد باقر الحكيم ﯬ عضد الامام المفدى الذي حمل راية الجهاد والدفاع وهو امتداد أصيل لمواقفه. كان يقول لي في إصراره على العودة إلى العراق الجريح بعد سقوط صدام ٢٠٠٣م حينما حذرته القتل عشية العودة من إيران : (... لي أسوة حسنة بمن سبقني) طالباً الحق مهما كلف الثمن ولو الشهادة[١].

٦- العلامة المجاهد المرحوم السيد عبد العزيزالحكيم (قدس) الذي وفى بالمسيرة وسار على الدرب[٢].

---

(١) كان بيني وبينه محادثات وزيارات متكررة في منزلـه بـالنجف الاشرف بعد استشهاد الامام الصدر (قدس) مباشرة في شـهري رجب وشعبان ١٤٠٠هـ الموافق ١٩٨٠م قد أثمـرت وأينعـت بفضل الله ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ إبراهيم ٢٥.

(٢) اجتمعت به، وعائلتي بعائلته في منزله بدار والده الامام السيد محسن الحكيم ﯬ أكثر من مرة، منها في شهر شعبان ١٤٠٠ هـ =

٧- أستاذي: آية الله العظمى المجاهد السيد كاظم الحائري حفظه الله، له أبحاث في علم الأصول والفقه وهو من المراجع ومن تلامذة الإمام الصدر ﭭ المقربين عنده.

٨- أستاذي: آية الله العظمى الفقيه المجاهد السيد محمود الهاشمي الشاهرودي، كان رئيساً عاماً لقضاء الجمهورية الإسلامية في إيران لسنوات عديدة ومن المعتمدين لدى الإمام السيد الخامنئي.

ولا يخفى على أحد أنه كان من تلامذة الإمام الصدر ﭭ المبرزين والمعتمدين عنده، وقد رأيت الامام الصدر ﭭ مراراً وفي أوقات مختلفة يخرج من منزل السيد الهاشمي بالنجف الأشرف والكتاب تحت إبطه الشريف، مما يدلك على عظيم منزلته عنده ومقامه العلمي المتميز.

وله أبحاث أصولية قد ألقاها في قم المقدسة من تقريراته للإمام الصدر ﭭ (بحوث في علم الأصول ٧ مجلدات) قد

= الموافق ١٩٨٠م وكانت بيني وبينه محادثات طيبة مثمرة ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا﴾ [الرعد : ٣٥]، ﴿كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء﴾ [إبراهيم : ٢٤].

تشرفت حضورها في الثمانينات حتى مغادرتي إيران، كما حضرت بحثه الفقهي حفظه الله تعالى، ووجدت فيه دقة المطالب العلمية، وسرعة الاستحضار والاستذكار لها بالرغم من كثرة مشاغله.

إنه حفظه الله تعالى له الأهلية واللياقة الكافية لأن يدخل ساحة المرجعية الرشيدة ويرفدها، ويحميها كما بقية المراجع العظام والآيات الكرام أيدهم الله تعالى وحماهم وسدد خطاهم عزاً للإسلام والمسلمين وستكون مرجعيته قرة عين ووفاء للإمام الشهيد الصدر الأول ﭭ.

٩- السيد النجيب المجاهد العلامة الفاضل محمد الغروي صديقنا وحبيبنا، له علاقات حميمة وودية ووفية مع أستاذه الشهيد الأول ﭭ ، وله صحبة طيبة مع الإمام المغيب السيد موسى الصدر فرج الله عنه، والآن فعلاً ومنذ سنين يقيم في مدينة صور لبنان ومن فضلاء وأساتذة الحوزة.

١٠- أستاذي: العلامة الفاضل المجاهد السيد عبد الغني الأردبيلي (رحمه الله) وكيل الامام الصدر الشهيد الأول ﭭ في إيران.

غادر النجف الأشرف عام ١٩٧٥م وقد حصل على وكالة منه (رضوان الله عليهما) في٢٣ شعبان ١٣٩٥هـ وقد وافاه الأجل راحلاً إلى ربه في حادث سير مؤسف في ٢٨ رجب ١٣٩٧هـ[1].

ورأيت بعض الرسائل المتبادلة بينه وبين السيد الشهيد ﵀ كانت تفيض بالاحترام والحنان.

لقد وفقت آنذاك وقبل سفره أن أدرس على يديه في كتاب (اقتصادنا، وفلسفتنا) بتوجيه أبوي كريم من السيد الإمام الشهيد الصدر ﵀، وذلك في غرفة مقبرةٍ شمالية من الصحن الحيدري، علماً أن مثل هذه الدروس لم تلاقي ترحيباً طيباً في جامعة النجف آنذاك !.

البعد الثاني: يتمثل في علمه وفكره الثاقب في شتى العلوم والمعارف الواسعة التي أودعها بطون كتبه ومؤلفاته الرصينة وقد ألمعت آنفاً أن ما ظهر منها و برز يربو على ثلاثين مؤلفاً في بحار العلوم ومحيطاتها.

---

(١) محمد باقر الصدر السيرة والمسيرة، ج٣ ، ص ٣٧٢.

ومن هذه الفيوضات المباركة، والعلوم المقدسة علم الفلسفة الميتافيزيقية الاسلامية، التي أراد من خلالها هدم ما بنته الفلسفة المادية وخصوصاً منها الديالكتيكية الملحدة في فهمها الخاوي عن العالم والكون الذي أرجعت كل شيء فيه إلى المادة، ورفضت جميع المبادئ العقلية وضربت بها عرض الجدار، ونفت ماوراء المادة.

إلا أنه تمكن بقدرة الله تعالى بعد التوكل عليه سبحانه في كتابه «فلسفتنا» أن يجعلها في مصاف فرعون والفراعنة محنطة في متحف التاريخ جسداً بلا روح، وستبقى كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال الله تعالى: **﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾**[1].

وقد ترك هذه النظريات المادية مسجَّاةً في تابوت الزمن عبرة وآية لمن بعدها كفرعون الذي رفض بجبروته أن يكون للكون والعالَم إلهٌ غيره **﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ***

---

(١) سورة مريم، الآية: ٤٠.

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾(١).

وما على أصحاب هذه النظريات خصوصا الديالكتيكية منها، بعد أن وضعها على خشبة العمليات الدقيقة والقوانين الفيزيائية الحديثة، وأدخلها المصانع التجريبية المسلمة عندهم، وحاكمهم على ضوء مبادئهم التي بنوا عليها الديالكتيكية إلا أن يقولوا كما قال فرعون حين أدركه الغرق **﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـــهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾**.

وما هذا السفر الصغير الذي بين يديك الكريمتين إلا محاولة متواضعة لكشف الحقيقة المطلقة الدائمة التي نروم منها الوصول إلى معرفة المبدأ الأعلى لهذا الكون والعالَم، ومن هو الذي تنتهي إليه جميع العلل ولا تستغني عنه أبداً ؟

والضالة المنشودة لك في هذا كله هو كتاب (فلسفتنا) الينبوع الرقراق والمعين الصافي الذي سيسقيك به شراباً سلسبيلاً، وينقل من كان ملحداً أو مشركاً إلى الإيمان بالله

---

(١) سورة يونس، الآيات: ٩٠-٩٢.

تعالى والإخلاص له، الذي ستجد فيه ما يسرك ويروي ظمأك للوصول إلى معرفة الحقيقة.

وقد اقتطفت وارتشفت لك من بحره الزاخر قطرة عذبة، ومن جنته الغنَّاء وردة فواحة لتروي ظمأك بها فتحيى، وتعطر أنفاسك بعَبَقِ أريجها الشّذي، فتنتعش معها روحك وينفتح لها قلبك وفؤادك.

وما هذه الوردة الندية من جنته الوارفة بضلالها، والقطرة من معين رقراقه العذب إلا مقتطفاتٍ انتقيتها واخترتها لك من أبحاث فلسفية راقية هي بمجموعها عقد جمان (فلسفتنا) استلهمها ﭬ من شعاع كتاب الله تعالى **﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾**[1].

فليس لي ولك عن عِقد جُمانه المنضود غنى عن جماله، ولا مندوحة لي ولك في الإعراض عنه، وهو يتمثل في بحثين:

البحث الأول: **(نظرية المعرفة)** .

البحث الثاني: **(المفهوم الفلسفي للعالم)**.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢.

أما فيما يرتبط **بالبحث الأول: (نظرية المعرفة)** خصوصاً فمسؤوليته بالتحديد تقع في أمرين أساسيين :

الأمر الاول: أن المقياس الاول في التفكير البشري الذي به تكتسب المعارف ويحصل به الجزم واليقين التصديقي إنما هو مرده العقل ليس إلا ، وحتى ما يقال ويدَّعى من أن رصيد المعارف البشرية عند التجريبيين هي التجربة وأنها المقياس في ذلك، فإن هذا في حقيقته يعود إلى تطبيق المقياس العقلي (ولا غنى للنظرية التجريبية عن الرصيد العقلي)[١].

الأمر الثاني: إننا سوف ندرس فيه قيمة المعرفة البشرية، وهل أن المعرفة هذه لها قيمة علمية فيجب الأخذ بها أو لا؟

إنك ستجد بعد الدراسة والتحقيق أن (المعرفة) لاقيمة لها علمياً إلاّ على ضوء المنطق العقلي القائل بأن مصدرها ومردها العقل حتى ولو دخلنا بها المخابر التجريبية، فإنها محتاجة وخاضعة لسلطان العقل.

---

(١) فلسفتنا،كلمة الإمام الصدر تتئل ص٤٣، ط٣ دار التعارف ١٤٣٠هـ.

ولا تفلت من قبضته، بل ولا تستغني المعرفة التجريبية عن المعرفة العقلية الذي يعني أن كل ما لدى الإنسان من معارف وعلوم هي متحدِّرة من رحم المعرفة العقلية ، وتتغذى منه كما يتغذى الجنين من رحم أمه، (فالعقل) هو بمنزلة الأب و(المعرفة) هي الأم لكل العلوم والمعارف البشرية .

وسترى أن المنطق الديالكتيكي بنظريته في المعرفة المادية قد أنزلها من عرشها وسلطانها الأمومي، وبهذا المنطق بعدما سلبها أمومتها أصبحت العلوم والمعارف ضائعة بلا أصل وهوية وفاقدة للموازين والمبادئ العلمية العامة كمبدأ العلية، واستحالة اجتماع الضدين المتولدة من رحم المعرفة العقلية .

وعليه ففي الأمر الثاني الذي نبحث فيه عن قيمة المعرفة البشرية لن نجدها إلا في المنطق العقلي، ونفقدها في المنطق الديالكتيكي.

والدراسة والتحقيق في البحث الأول عن نظرية المعرفة إنما هو تمهيد ومقدمة لذي مقدمة مهمة وحساسة للغاية في علم الفلسفة تتمحور في بحثنا الثاني.

البحث الثاني: **(المفهوم الفلسفي للعالَم)** والذي نبحث فيه بعد بحث نظرية المعرفة عن مبدأ العلية ثم بالنتيجة عن المبدأ الأول للكون والعالَم وهو ما يعني ويساوي التوحيد والإيمان بالله تعالى (خالق ما يُرى وما لا يُرى) وهو الجزء الثاني.

وفي ختام هذه المقدمة أرجو أن أكون قد أعطيتك أخي الكريم! صورة موجزة عن شخصية الكاتب ﵀ والكتاب (فلسفتنا).

وها أنا قد جعلت بين يديك الكريمتين في هذا السفر الصغير بكل تواضع (نظرية المعرفة) و (مبدأ العلية) ودراستهما دراسة فلسفية موضوعية للنظريات الحديثة والقديمة المادية والميتافيزيقية للحصول على الجواب المقنع وما يتطابق والقوانين والمبادئ العامة المسلَّم بها لدى جميع أصحاب الفلسفة بعد عرضها على خشبة المسرح العام أمام المتفرجين من ذوي الخبرة والاختصاص ليروا من سيصل أولاً إلى حلبة الصراع مظفَّراً ؟.

أخي الكريم ! أقدم لك وريقاتي بحروفها وأسطرها الخجولة التي تحتضن في أعماقها خجالاتي واستحيائي من

الله تعالى ثم منك خوف أن لا تكون محققة الرضا والقبول، وأن لا تكون بالغة الغاية القصوى في شوطها الذي انطلقت من أجله عام ١٤٠١هـ-١٩٨٠م في حاضرة العلم ومصدر المعرفة مدينة (قم) المقدسة، وكاد هذا البحث كما غيره من الأبحاث أن يضيع تحت وطأت التزاحمات والأشغال حينها، ولكن وبعد عشرين سنة من مغادرتي حاضنة العلم (قم) المقدسة عدت أستنشق عَبَقَ الإمامة وأريج العصمة على بساط سيدي ومولاي الإمام الرضا عليه السلام ثامن أهل البيت وأخته (فاطمة المعصومة) عليها السلام عام ١٤٣١هـ-٢٠١٠م وأتحفني بهديته السنية بالعثور على هذه الأبحاث المتواضعة التي عدّلت وأضفت إليها بعض ما يلزم، ولا أقدر أن أصف لك حجم فرحتي بها، فله الحمد والمنّة، ولسيدي التكرم والامتنان.

وفي الختام أخي القارئ الأجل والأستاذ المبجل! أشكرك بعد الله تعالى، وأتمنى لك خالص دعواتي ، ولا تنساني أيام الإقبال على الله سبحانه في مناجاتك ودعواتك لي بالتوفيق في الأمور كلها.

أسألك سيدي وربي ومولاي أن تأخذ بنيتي وتجعلها في كل حرف بل وكل نقطة من يراعي سطرها خالصة لوجهك

الكريم وابتغاء رضاك والجنة وصالح المسلمين والإنسانية لاتباع دينك وإعلاء كلمتك.

اللهم تقبل سَفْري الضئيل هذا منك قبولاً حسناً واجعله مورد عنايتك ورضاك **﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَنَاً﴾**[١].

اللهم ربي وسيدي اجعله لي نوراً وثقلاً في ميزان حسناتي يوم ألقاك، يوم الطامة والقارعة والصاخة والآزفة والحساب والقيامة **﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾**[٢].

اللهم واجعل أجر كل ذلك بمنك ولطفك لوالدي الحاج ملا علي بن الحاج ملا راضي بن الحاج ملا محمد علي، ولوالدتي الحاجة حليمة حسن المحمد صالح، مربية الأيتام، وملازمة الحج والعمرة أكثر من خمسين عاماً جنباً إلى جنب والدي حتى وافاها الأجل في حج ١٤١٧هـ ووفقتُ بدفنها بالبقيع الغرقد تغمدها الله بواسع رحمته ولطفه بإذنه تعالى.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٧.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨-٨٩.

ولولدي عبد الله قرة العين ودرة القلب المشغول في حينه بحفظ القرآن المبين حتى وافاه الأجل، وبعد لم يتجاوز ربيع عمره الثاني عشر في سورية بعد الوالد بشهر وثلاثة أيام وبجواره في دمشق السيدة زينب عليها السلام ٧ جمادى الآخر ١٤٢٥هـ الموافق ٢٠٠٤م.

اللهم واجعل أجر كل ذلك بفضلك ولطفك لمن كان سبباً لعملي المتواضع (أستاذي وقرة عيني الإمام السيد محمد باقر الصدر الشهيد الأول) قدس سره[1] وآية الله الشهيد السيد حسن

---

(١) لم أنسه في خلواتي وتضرعاتي إلى الله تعالى من قراءة القرآن والحج والعمرة والصدقات والنوافل دوما منذ استشهاده في عام ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م وإلى لحظتي هذه ٢٧/٨/ ٢٠١٠م غروب يوم الخميس ١٥ رمضان ١٤٣١هـ وفاءًا مني له ، ولأستاذي آية الله الشهيد السيد محمد باقر الحكيم قدس سره وجميع أساتذتي ومن وجب له حق عليَّ.

مهدي الشيرازي الذي استشهد في طريق إقامته أربعينية الإمام الصدر في لبنان[١]، وعضده المفدى الشهيد آية الله السيد محمد باقر الحكيم تتئن وجميع أساتذتي (ومن يعنيني أمره).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين (نحمده على ماكان، ونستعينه من أمرنا على ما يكون، ونسأله المعافاة في الأديان، كما نسأله المعافاة في الأبدان)[٢].

(والحمد لله الذي لا تدركه الشواهد، ولا تحويه المشاهد، ولا تراه النواظر، ولا تحجبه السواتر، الدال على قِدَمِه بحدوث خلقه، وبحدوث خلقه على وجوده...، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصفي، وأمينه الرضي صلى الله عليه وآله)[٣] مصابيح الدجى وأعلام الورى نجوم الأرض

---

(1) بتاريخ ١٦ جمادى الثاني ١٤٠٠هـ الموافق ١٩٨٠/٥/٢م.

(٢) نهج البلاغة، خطبة ٩٩.

(٣) نهج البلاغة، خطبة ١٨٥، ط انتشارات هجرت ١٣٩٥هـ د. صبحي الصالح.

وأمانها، و﴿... **كسفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق وهوى**﴾[١] والسلام والتحيات الزاكيات على أصحابه الأخيار الأبرار ﴿**وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[٢].

العبد الغارق في هواه والمفتون بدنياه

أبو آدم

حسن علي الراضي العبد الله

دمشق السيدة زينب عليها السلام

١٥ شهر رمضان المبارك ١٤٣١هـ

٢٧/٨/٢٠١٠م

---

(١) حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٧.



تمهيد

كل إنسان يدرك بأن لديه ادراكات ومعارف قد زُوِّد بها منذ أن فتح عينيه على هذا الكون الزاخر بالعجائب، ولكن السؤال المطروح الذي لا زال سراً غامضاً، ولم يتوصل الفلاسفة جميعاً إلى جواب واحد ليحل اللغز المطروح عليهم (ما هو ينبوع المعرفة البشرية؟) وبما أن الجواب على هذا اللغز المطروح يشكل الانطلاقة الأولى والأخيرة لأي مذهب من المذاهب الفلسفية، ولأنه هو الذي يكون المادة الحية لجميع مباني وقواعد هذا المذهب أو ذاك، وهو الذي يحدد معالمه الرئيسة، ويكون سر انتصاره في تحقيق أهدافه التي أقامها من أجله.

فإذاً لا بد من تحكيم القبضة وإبداء آرائه الفلسفية للجواب على (ما هو ينبوع المعرفة البشرية؟) ليخلق بإبداء آرائه منعطفاً خطيراً في تاريخ مذهبه فإما أن ينتصر على أقرانه من المذاهب الفلسفية الأخرى، وإما أن يفشل في تحقيق الهدف المنشود في بناء مذهبه.

ولكن وقبل الدخول في دراسة المذاهب الفلسفية والتي تصدت بجد للجواب عن بيان وتعريف الخيوط الأولية للمعرفة البشرية، لا بد من أن نعرض وبشكل مختصر تعريف للمعرفة البشرية من وجهة نظر فلسفية..

قالوا: (المعرفة تساوي الإدراك)، وعلى هذا تكون الكلمتان مترادفتين:

الإدراك نوعان :

❖ النوع الأول: التصور :

وقد جاء في تعريف (التصور) عند خواجة نصير الدين الطوسي ﷺ بأنا (إذا أدركنا حقيقة فإمّا أن نعتبرها

من حيث هي هي، من غير حكم عليها لا بالنفي ولا بالإثبات، وهي التصور..)[١].

هذا وقد عرّفه سيدنا الشهيد الصدر ﵀ بقوله: (التصور وهو الإدراك الساذج) [٢]، فالتصور في رأي هذا الفيلسوف بسيط لا يتبعه حكم وقد يكون المتصور شيئاً موجوداً ونعايشه، كما لو تصورنا الحرارة والألم والحق.. وقد لا يكون موجوداً أو لم يتوصل إليه العلم، كتصورنا قبة من ذهب في الجو، وأن المريخ مليء بأنواع الحيوانات، فإن هذه التصورات لا يستتبعها حكم وإنما هو مجرد تصور ساذج يختزنه الذهن أحياناً.

وقد بيّن سيدنا الشهيد ﵀ في معرض حديثه عن (التصور) بأن الذهن البشري ينطوي على قسمين من التصورات:

---

(١) تلخيص المحصّل، ص ٦.

(٢) فلسفتنا، ص ٥٧.

- **الأول:** المعاني البسيطة، ومثّل له بمعاني الوجود والوحدة والحرارة والبياض، فإنها كلها مفردات، وغير مركبة معانيها.
- **الثاني:** أن تكون المعاني المتصورة في الذهن معانٍ مركبة من مجموع معانٍ بسيطة.

وضرب تتمُّ أمثلة لذلك فقال:

(قد نتصور جبلاً من تراب، ونتصور قلعة من الذهب، ثم نركب بين هذين التصورين فيحصل بالتركيب تصوّر ثالث وهو تصور جبل من الذهب. فهذا التصور مركب في الحقيقة من التصورين الأولين)[1].

وما ذكرهما سيدنا الشهيد تتمُّ من التصورين البسيط والمركب، لا يعني أن أحدهما ينفرد عن الآخر في غير حدود الإفراد والتركيب، وإلا فهما من وجهة نظر فلسفية شيء واحد يعنيان التصور البسيط الساذج الذي لا يستتبعه حكم وتصديق.

---

(١) فلسفتنا، ص ٥٩.

❖ النوع الثاني (التصديق):

عرفوا (التصديق) بأنه (الإدراك المنطوي على حكم)[١].

وعرّف خواجه نصير الدين الطوسي ﵀ (التصديق) بعد إدراكنا للحقيقة، قال في تعريفه بعد أن ذكر (التصور): (... أو أن نحكم عليها - الحقيقة - بنفي أو إثبات وهو التصديق)[٢].

وعرفه بعض الفلاسفة الحسيين (كجون ستوارت ميل) بأنه يعني تصورين متداعيين.

ولكن هذا التعريف يُمنى بالهزيمة وعدم الصحة في كثير من المواطن، فإنه ليس كل ما تصور الذهن شيئين مترابطين أصدر حكمه، فقد يتصور الإنسان المريخ وعنده يتصور أن فيه عالماً يشبه العالم الأرضي، ومع

---

(١) فلسفتنا، ص ٥٨.

(٢) تلخيص المحصّل، ص ٦.

ذلك لا يصدر حكمه ولا يحصل عنده تصديق بما تصوره.

وكأن الحسيين وقعوا في خطأ كبير بعدم التمييز بين (التصور) الذي يعني محض الإدراك، وبين (التصديق) الذي هو إدراك معه حكم على الشيء المدرك ذهنياً.

والتصديق هو الذي يعني الإدراك المستتبع بالحكم، وهذا إنما يتم بعد حمل المحمول على موضوعه كما لو أدركنا بأن (النار حارة) وأن (الأرض متحركة، وأن الحق يعلو) فإن هذه القضايا قضايا تصديقية لتضمنها الإدراك والحكم.

والبحث في هذا الكتاب الذي بين يديك ينطوي على أقسام لتكتمل صورته ، ويظهر لك حسنه وجماله ، وتودعه وأنت في شدة الاشتياق واللهفة إليه لاحتضانه مرة أخرى إن لم تكن مرات.

والحمد لله كلما حمده الحامدون وفوق كل تسبيحة في الكون تسبحه وتقدسه، ثم الصلاة والسلام على خير الأنام محمد وعترته سادات كل من أخلص في سعيه وصلى وصام.

العبد المثقل بذنوبه وآثامه
أبو آدم
حسن الراضي الأحسائي

دمشق الشام/السيدة زينب عليها السلام
يوم ولادة المصلح الأعظم
الإمام محمد بن الحسن المهدي (عج)
١٥ شعبان الخير عام ١٤٣١ هـ-٢٠١٠/٧/٢٤م



القسم الأول

التصور ومصدره في الفلسفة



بعد أن درسنا وعرفنا ما هو التصور (الإدراك) والتصديق-من وجهة نظر فلسفية، بقي علينا الآن أن نسلط الضوء على الخيوط الأولية لنعرف من أين ينشأ (التصور، والتصديق) اللذان يعنيان المعرفة البشرية، وبها تترقى الأمم وتتحضر، وبها تكتسب شتى العلوم في مختلف ميادينه.

فالمعرفة هي أصل التفكير الإنساني، وبها تميز الإنسان وامتاز عن بقية الموجودات الحية، وبها صار مصداقاً لخالقه العظيم **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾**[١] .

وشيء بهذا القدر من الأهمية والمنزلة الكبيرة لا بد من وضع اليد على منهله العذب، ومعرفة مصدره الرصين، وذلك لسببين:

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

الأول: أنه كلما عُرف منبع المعرفة ومصدرها الأساسي ازداد قيمة وعظمة في نفوسنا.

الثاني: والأهم من الأول ، أنه هو الذي يعطي النظرية الفلسفية، والعلمية، قيمة عالية أو دنيا، وأكبر دليل على هذا أن الفلاسفة والمفكرين أعطوها جل جهودهم واحتدم النزاع والخلاف عندهم في أنه ما هو مصدر الإدراك = التصور ؟

ونحن هنا نريد أن نطرح بعض النظريات الفلسفية التي حاولت أن تثبت وجودها في الميدان وتدلل على صحة براهينها الفلسفية في دعم مذهبها.

وسوف نسلط الضوء بعد المقارنة بينها وبين الفلسفة الإسلامية لنرى أي الطرفين يفوز بقصب السبق في ميدان البراهين والأدلة المقنعة ويحقق هدفه.

وأول ما نبدأ بطرحه ودراسته هو النظريات الفلسفية غير الإسلامية (اليونانية والأوربية الميتافيزيقية والمادية)، ثم بعد ذلك نطرح نظرية الفلسفة الإسلامية في منبع التصور، وهذا ما يكون في مقامين:

المقام الأول

الفلاسفة
اليونانيون والأوربيون
ومصدر التصور



١- نظرية الاستذكار الأفلاطونية



ذكر سيدنا الشهيد الصدر ﵀ نظرية (أفلاطون)[١] في منبع الإدراك (التصور)، «وهذه النظرية إنما هي منبثقة من فلسفته القائلة بعالم (المُثُل) فكانت نظريته الاستذكارية تتلخص في أن (النفس) قديمة وموجودة قبل وجود البدن، فوجودها متحرراً من المادة وما يعلق بها تحرراً كاملاً فأتيح لها الاتصال بعالم (المُثُل) فهي تعلم بكل الحقائق والصور في ذلك العالم، ولكن حين اضطرت إلى الهبوط من ذلك العالم للاتصال بالبدن، وعلقت بالمادة فقدت بسبب هبوطها كل شيء علمتَه في ذلك العالم الأسمى، وحيث أن تلك المثُل والتي كانت في ذلك العالم لها ظلال وصور تشبهها في هذا العالم الذي هبطت إليه النفس، بدأت (باسترجاع إدراكاتها عن طريق الإحساس بالمعاني الخاصة والأشياء الجزئية، لأن هذه

---

(١) (٤٢٧-٣٤٨ قبل الميلاد) مزيداً من الاطلاع على حياة (أفلاطون) عليك بالمصادر التالية: تهافت الفلاسفة للمنوفي ص ٨٧ و ٩٥، وتاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ص ٦٢.

المعاني والأشياء كلها ظلال وانعكاسات لتلك المثل والحقائق الأزلية الخالدة في العالم الذي كانت تعيش النفس فيه. فمتى أحست بمعنى خاص انتقلت فوراً إلى الحقيقة المثالية التي كانت تدركها قبل اتصالها بالبدن، وعلى هذا الأساس يكون إدراكنا للإنسان أي لمفهوم الإنسان بصورة كلية عبارة عن استذكار لحقيقة مجردة كنا قد غفلنا عنها، وإنما استذكرناها بسبب الإحساس بهذا الإنسان الخاص أو ذاك من الأفراد التي تعكس في عالم المادة تلك الحقيقة المجردة»[١].

وقد خرج أستاذنا الشهيد الصدر قدس سره من هذه النظرية الأفلاطونية بقضيتين فلسفيتين، وردّ كلاًّ منهما رداً علمياً تحتويه الأدلة والبراهين الفلسفية.

---

(١) فلسفتنا، ص٦٠، محاضرات في العقيدة الإسلامية للبهادلي ص٦٤، الفلسفة العربية ص ٣٥، المنهاج الجديد في الفلسفة العربية ص ٣٨، تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ص ٧٢، وفلاسفة من الشرق والغرب ص ٢٩٨، والفلسفة عند اليونان ص ١٨٥.

القضية الأولى: «إن النفس موجودة قبل وجود البدن في عالم أسمى من المادة»[١].

القضية الثانية: «إن الإدراك العقلي عبارة عن إدراك الحقائق المجردة الثابتة في ذلك العالم الأسمى والتي يصطلح عليها (أفلاطون) بكلمة (المُثُل)»[٢].

قال أستاذنا الشهيد الصدر قدس سره «وكلتا القضيتين خاطئتان كما أوضح ذلك ناقدو الفلسفة الأفلاطونية».

ثم شرع قدس سره في تفنيد كل منهما ببرهان فلسفي:

أ – (فالنفس في مفهومها الفلسفي المعقول ليست شيئاً موجوداً بصورة مجردة قبل وجود البدن، بل هي نتاج حركة جوهرية في المادة، تبدأ النفس بها مادية متصفة بخصائص المادة وخاضعة لقوانينها، وتصبح بالحركة والتكامل وجوداً مجرداً عن المادة لا يتصف

---

(١) فلسفتنا، ص ٦٠.

(٢) فلسفتنا، ص ٦٠.

بصفاتها ولا يخضع لقوانينها، وإن كان خاضعاً لقوانين الوجود العامة، فإن هذا المفهوم الفلسفي عن النفس هو المفهوم الوحيد الذي يستطيع أن يفسر المشكلة، ويعطي إيضاحاً معقولاً عن العلاقة القائمة بين النفس والمادة، بين النفس والبدن، وأما المفهوم الأفلاطوني الذي يفترض للنفس وجوداً سابقاً على البدن فهو أعجز ما يكون عن تفسير هذه العلاقة، وتعليل الارتباط القائم بين البدن والنفس، وعن إيضاح الظروف التي جعلت النفس تهبط عن مستواها إلى المستوى المادي)[١].

وبهذا البرهان يكون (أفلاطون) أعجز من أن يفسر سبب العلاقة القائمة بين النفس والبدن، بل هذا البرهان القائل بأن (النفس) هي نتاج حركة جوهرية في الجسم، كفيل بأن يجهز على دعواه بأن النفس كانت تعيش في عالم أسمى من هذا العالم، ولكن بسبب تورط بعض أفرادها في الخطيئة اضطرت إلى الهبوط في هذا العالم

---

(١) فلسفتنا، ص ٦٠ و ١٠١، طبع دار التعارف الثالثة.

الأدنى حتى أصبحت سجينة جسم قد ضمها، وأنها بعد أن يفقد الجسم حياته تخرج منه، فإن كفّرت عن ذنبها السابق عادت إلى عالمها الأسمى، وإن كانت بعد لم تستوفي التكفير حلّت في جسم آخر، وهكذا كان يعتقد بتناسخها في أجسام متعددة، وأنها لا تفنى حيث أن (المُثُل) التي تعيش إلى جنبها لا تفنى، فإذاً هي لا تفنى[١].

أقول: إن تفسير (النفس) بأنها نتيجة حركة جوهرية في الجسم، هو كفيل بأن يرفع نظرية (المُثُل) القائل بها (أفلاطون) وفي نفس الوقت يرفض هذا البرهان القول بقدم (النفس).

إن نظرية (المُثُل) التي ادعاها (أفلاطون) كما قال أحد الكتّاب لم يُقم عليها برهاناً، والعلم قاصر من هذه

---

(١) راجع كلاً من المنهاج الجديد في الفلسفة العربية لعمر فروخ ص ٣٦، وتاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ص ٨٨، وتهافت الفلاسفة ص ٩٣.

الجهة، فلم يتوصل بعد إلى حقيقة ما تضمنته نظرية (المُثُل) القائمة على وجود حقائق وأصول، لما يعج به هذا الكون من صور وظلال لتلك الحقائق الموجودة في أحضان العالم الأعلى، فشجرة (الورد) التي نستنشق عبير عطرها الفواح إنما هي صورة لتلك (الشجرة) الحقيقية، وهكذا العالِم المفكر والعبقري الكبير كملاّ صدرا، وخواجة نصير الدين، والطوسي، والسيد الصدر، وأفلاطون نفسه، وغيرهم من المفكرين لهم (مُثُل) وحقائق في العالم الأعلى، وأن هؤلاء العباقرة والمفكرين الذين نعايشهم إنما هم صور لا حقائق، وهكذا ما يدعيه من قدم (النفس) وكيفية حلولها في البدن، كل هذا لم يُقم (أفلاطون) عليه برهانا علمياً مقنعاً.

هذا وقد فند أستاذنا الشهيد الصدر ﷼ القضية الأولى من نظرية (المُثُل) وقد استطاع أن يبطل دعوى من أن (النفس) موجودة قبل (البدن) بتفسير أنها إنما هي نتاج حركة جوهرية، فلا وجود لها قبل البدن ولا مُثُل إذاً.

ولكن الذي لم ينص عليه بشكل صريح هو هل أن (النفس) التي كانت موجودة بوجوده تفنى بفناء الجسد أم أنها تبقى بعد فنائه ؟

والجواب: أن السيد الصدر ﷺ كبقية الفلاسفة يؤمن ببقاء (النفس) بعد فناء الجسد، وهذا ما نستفيده من عبارته (... وتصبح - أي النفس - بالحركة والتكامل وجوداً مجرداً عن المادة لا يتصف بصفاتها ولا يخضع لقوانينها....) فإن من صفات (المادة) وقوانينها الفناء و(النفس) لا تخضع لهذا القانون.

ب - ثم شرع أستاذنا ﷺ في إبطال ما سمّاه بالقضية الثانية من نظرية (المُثُل)، فقال ﷺ : «كما أن الإدراك العقلي يمكن إيضاحه مع إبعاد فكرة (المُثُل عن مجال البحث) بما شرحه أرسطو في فلسفته من أن المعاني المحسوسة هي نفسها المعاني العامة التي يدركها العقل بعد تجريدها عن الخصائص المميزة للأفراد

واستبقاء المعنى المشترك، فليس الإنسان العام الذي ندركه حقيقة مثالية سبق أن شاهدناها في عالم أسمى، بل هو صورة لهذا الإنسان أو ذاك بعد إجراء عملية التجريد عليها واستخلاص المعنى العام منها»(١).

وهكذا يذهب (أرسطو) إلى أن معرفتنا للأشياء ليس عن طريق تذكر (المُثُل) التي كانت النفس إلى جانبها في ذلك العالم الأسمى كما عبر عنه أستاذه (أفلاطون) في نظريته، وإنما الإدراك (العقلي) للأشياء يتم عن طريق المحسوسات الخارجية، فالتفاحة ذات اللون الجميل والرائحة العطرة والجسم المتناسق إلى ما لها من صفات متعددة، يقتنص (العقل) منها معنىً بسيطاً مجرداً عن كل الصفات الخارجية للشيء المُحَس، يسمى بـــ(التفاحة) وهكذا في معنى (الإنسان) إنما هي في رأي (أرسطو) شيئاً عاماً أدركه العقل، واستفاده من هذا

---

(١) فلسفتنا، ص ٦١، ومزيداً من الاطلاع راجع المنهاج الجديد في الفلسفة العربية ص ٦٠.

الإنسان وذاك والتي هي تشكل مصاديقه في الخارج بعد أن جيء هذا المعنى المدرَك من كل الصفات الخارجية، ولم يكن هذا الإدراك العقلي نتيجة تذكر حقائق ومُثُل ما نحس به في العالم الخارجي كما يقول (أفلاطون).

وأخيراً أقول أن (مُثُل) أفلاطون لا تعدو كونها فرضية ونظرية كريشة الرسام في يده غير ثابتة، ليس له ما يسندها من الدليل والبرهان، وقد كشفت ظلمتها شمس الصدر قدس سره وأرسطو اللذان ردّا نظريته وأبطلاها، فلم يعد لها موقع في المفهوم الفلسفي.

٢- النظرية العقلية:

ذهب جمع من فلاسفة أوروبا مثل (ديكارت، وكانت) وغيرهما إلى أن للتصور منبعين:

الأول: هو (الإحساس) ويقصدون به أن (التصور) لدى الإنسان إنما يكون عن طريق الحواس الخمس المعلومة، والتي تتعلق بالأشياء الخارجية فنتصور (الجبل) في ذهننا لأننا رأيناه ببصرنا، ونتصور الحرارة والنور واللذة والطائر وغيرها لأننا أحسسنا بها.

الثاني: (الفطرة) ويعنون بها أن (النفس) البشرية تمتلك رصيداً من المبادئ العامة والتي قد استبطنتها (النفس) حسب فطْرتها ولم تكن عن طريق (الإحساس) الخارجي المتقوم بالأشياء المُحسَة، فتصورات تلقاها الذهن البشري من ذات (النفس) وبفضلها، ولم تمده بها إحدى الحواس الخمس التي لا تعمل إلا في حدود الأشياء الخارجية.

والتصورات الفطرية هي: (الله، والنفس، والامتداد، والحركة) إلى غيرها من أفكار هي واضحة بشكل لا يحتاج إلى برهان مثل (الوجود والشيء) .

و (ديكارت) في فلسفته عن منبع التصور كما يقول أستاذنا السيد الشهيد الصدر ﭭ هو الذي جنح إلى الجمع بين (الإحساس والفطرة) في توليدهما (للتصور) فكان مزيجاً منهما.

وأما (كانت) فقد خالف (ديكارت) في مذهبه حول منبع (التصور) حيث أنه ذهب إلى أن العلوم التصورية الساذجة إنما ترجع بمجموعها إلى الجانب الفطري، فكل التصورات نابعة من ذات (النفس).

وعلى هذا فبالأحرى أن لا تسمى نظرية (ديكارت) نظرية عقلية إلاّ من باب المجاز والتغليب، لأنها قائمة على (الإحساس والفطرة).

وأنصار النظرية العقلية إنما اضطروا إلى الأخذ بها أو وضعها إنما هو لعجزهم من تفسير طائفة من

التصورات لصالح (الحس) فصار لزاماً عليهم أن يحللوها ويرجعوها إلى شيء فطري نابع من ذات النفس، لأنها أشياء غير محسوسة.

وقد قال أستاذنا الشهيد الصدر ﷺ بهذا الصدد: (ويتضح من هذا الدافع الفلسفي إلى وضع النظرية العقلية يزول تماماً إذا استطعنا أن نفسر التصورات الذهنية تفسيراً متماسكاً من دون حاجة إلى افتراض أفكار فطرية...)[1] .

هذا وقد درس أستاذنا الشهيد الصدر ﷺ النظرية من كل جوانبها فقال ﷺ: (ولأجل ذلك يمكننا تفنيد النظرية العقلية عن طريقين)[2].

والذي يبدو لي أنه ﷺ لم يرتضي الطريق الأول الذي ذكره (لجون لوك) حيث أنه لم يحلل ولم يذكره إلاّ عن طريق النقل فقط.

---

(١) فلسفتنا، ص ٦٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٢.

الطريق الأول: وهو ما يتمثل في نظرية (جون لوك) في مقابل مذهب (ديكارت) صاحب النظرية العقلية.

ونظرية (جون لوك) تحلل (الإدراك البشري) بشكل يكون مفتقراً للحس المطلق، فيكون الإحساس هو المصدر المولد لجميع التصورات.

وهذه النظرية لو حالفها البرهان العقلي لأمكنها أن تجعل النظرية العقلية بلا مبرر والتي كانت تعجز عن تفسير بعض التصورات والمعاني بانبثاقها من الحس.

إن نظرية (جون لوك) لم تأتِ بما يدعهما علمياً ولا تستحق أن تعنون بما يفهم عنها أنها نظرية حيث أنها لم تلبس ثوب الدليل الفلسفي، وإنما هي مجرد إدعاء، فلا يمكن أن تعتبر رداً على النظرية العقلية ونبذها من كل جوانبها والجنوح إلى النظرية الحسية.

الطريق الثاني: وهذا قائم على النظرية الفلسفية القائلة بأن الواحد بالذات لا يصدر عنه إلا واحد، وعدم انبثاق الكثرة والتعدد من الواحد البسيط، والنفس إنما هي واحدة وبسيطة، والإدراكات والتصورات متكثرة ومتعددة فلا يمكن أن تصدر عن النفس بحسب فطرتها، وإنما لدخول عوامل خارجية، وليست هي إلا حالات الحس (الحواس الخمس) المختلفة[١].

وقد رد السيد الشهيد الصدر ﷷ هذا البرهان بأمرين:

الأول: (إلى أن هذا البرهان إذا أمكن قبوله فهو لا يقضي على نظرية الأفكار الفطرية تماماً لأنه إنما يدلل على عدم وجود كثرة من الإدراكات بالفطرة، ولا يبرهن على أن النفس لا تملك بفطرتها شيئاً محدوداً من التصورات يتفق مع وحدتها وبساطتها، وتتولد

---

(١) فلسفتنا، ص ٦٢

عنه عدة أخرى من التصورات بصورة مستقلة عن الحس)[١].

الأمر الثاني: (أن النظرية العقلية إذا كانت تعني وجود أفكار فطرية بالفعل لدى النفس الإنسانية أمكن للبرهان الذي قدمناه ان يرد عليها قائلاً إن النفس بسيطة بالذات فكيف ولدت ذلك العدد الضخم من الأفكار الفطرية، بل لو كان العقليون يجنحون إلى الإيمان بذلك حقاً لكفى وجداننا البشري في الرد على نظريتهم، لأننا جميعاً نعلم أن الإنسان لحظة وجوده على وجه الأرض لا توجد لديه أية فكرة مهما كانت واضحة وعامة في الذهنية البشرية)[٢].

﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٣].

---

(١) فلسفتنا، ص ٦٣ و ١٠٤، طبعة ثالثة دار التعارف.

(٢) فلسفتنا، ص ٦٣ و ١٠٤.

(٣) سورة النحل، الآية: ٧٨.

٣- النظرية الحسية:

أول من بشر بهذه النظرية (جون لوك)[1] الذي قاوم بها نظرية (ديكارت) الفطرية.

إن هذه النظرية الحسية تقوم (على أن الإحساس هو الممون الوحيد للذهن البشري بالتصورات والمعاني، والقوة الذهنية هي القوة العاكسة للإحساسات المختلفة في الذهن)[2].

وهذه النظرية نفت نفياً قاطعاً من أن يكون للنفس أي مدخل في ابتداع المعاني وابتكارها من تلقاء ذاتها، لترتسم على لوحة الذهن، وإنما الذهن يتلقى تلك الإدراكات والتصورات عن طريق الإحساس المتقدم بإحدى الحواس الخمس المختلفة.

---

(١) هو فيلسوف إنكليزي برز في عصر (ديكارت)، فلسفتنا ص ١٠٥.

(٢) فلسفتنا، ص ١٠٥.

فالحس على هذه النظرية هو الممون الوحيد في الإدراكات والتصورات والنفس إنما تقوم بعملية التجزئة والتركيب مثلاً بين تلك الصور، فتقوم النفس في مجال التجزئة بإفراز خصائص الشيء المتصور، فالنفس حينما تتصور زيداً بفضل الحس تقوم بتجريده عن كل صفة تفترق عن عَمْر ، ثم تبقي عليه عنواناً ينطبق عليهما كعنوان الإنسان مثلاً.

إن فلاسفة أوروبا قد تأثروا بهذه النظرية، وقد فعلت (الماركسية) التي كانت تؤمن بأن الشعور البشري إنما هو انعكاس للواقع الموضوعي، فالإدراك إنما يحصل عن طريق الإحساس الخارجي.

قال (جورج بوليتزير): (ولكن ما هي نقطة البدء في الشعور أو الفكرة، إنها الإحساس، ثم إن مصدر الإحساسات التي يعالجها الإنسان بدافع من احتياجاته الطبيعية)[١].

---

(١) المادية والمثالية في الفلسفة، ص ٧٥، نقلاً عن فلسفتنا ص ٦٥.

وقال (ماوتسي تونغ): (إن مصدر كل معرفة يكمن في إحساسات أعضاء الحس الجسمية في الإنسان للعالم الموضوعي الذي يحيطه)[١].

قال الشهيد الصدر ﵀ في رده للنظرية الحسية: (ويمكننا أن نوضح فشل النظرية الحسية في محاولة إرجاع جميع مفاهيم التصور البشري إلى الحس على ضوء دراسة عدة من مفاهيم الذهن البشري كالمفاهيم التالية: العلة والمعلول، الجوهر والعرض، الإمكان والوجوب، الوحدة والكثرة، الوجود والعدم، وما إلى ذلك من مفاهيم وتصورات)[٢].

إن هذه المفاهيم المذكورة لم تكن ولن تكون في يوم ما في متناول الحس، فإن الحس إنما يتناول ذات العلة والمعلول (فندرك ببصرنا سقوط القلم على الأرض إذا

---

(١) حول التطبيق، ص ١١.

(٢) فلسفتنا، ص ٦٧ و ١٠٦ ط ثالثة، دار التعارف بيروت ١٤٣٠هـ.

سحبت من تحته المنضدة التي وضع عليها، وندرك باللمس حرارة الماء حينما يوضع على النار، وكذلك ندرك تمدد الفلزات في جو حار. ففي هذه الأمثلة نحس بظاهرتين متعاقبتين ولا نحس بصلة خاصة بينهما، هذه الصلة التي نسميها بالعلية، ونعني بها تأثير إحدى الظاهرتين في الأخرى، وحاجة الظاهرة الأخرى إليها لأجل أن توجد...)[١].

إن الحس إنما يقع على الظاهرتين المتعاقبتين، فيحس بسقوط القلم بعد سحب المنضدة من تحته، وأيضاً بغليان الماء بعد وضعه على النار، ولكنه لا يقع على الصلة المؤثرة في الظاهرة الثانية، وما تسمى بمبدأ العلية، فإن هذا المبدأ لا يمكن أن يقع عليه الحس (وإذا كانت تجاربنا الحسية قاصرة عن كشف مفهوم العلية فكيف نشأ هذا المفهوم في الذهن البشري وصرنا نتصوره ونفكر فيه؟)[٢].

---

(١) فلسفتنا، ص ٦٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦٧.

ولم يكن الشهيد الصدر ﷺ وحده الذي أنكر وقوع مفهوم العلية تحت الحس، وعدم شموليتها لها، بل إن أحد رجال النظرية الحسية اعترف بعجز تناول الحس لمفهوم العلية، فهذا (دافيد هيوم) أنكر مفهوم العلية، للخطر الذي يهدد النظرية الحسية وعدم شموليتها ما لهذا المفهوم الدقيق الذي يدركه الذهن، ووضع بدل مبدأ العلية مفهوم تداعي المعاني، فقال: (إني أرى كرة البليياردو تتحرك فتصادف كرة أخرى فتتحرك هذه، وليس في الكرة الأولى ما يظهرني على ضرورة تحرك الثانية...)[١].

وكأن (دافيد هيوم) بإنكاره لمبدأ العلية يريد أن تكون النظرية الحسية في مأمن من التناقض والاضطراب.

والسيد الشهيد ﷺ رد هذا الزعم، من أنه لو سلم أنه لو لم يؤمن بمبدأ العلية في مجال التصديق (الحكم)

---

(١) فلسفتنا، ص ٦٧ و ١٠٨ ط ثالثة، دار التعارف بيروت ١٤٣٠هـ.

فإنه لا يقدر أن ينفيه في مجال التصور (فهب أنا لم نصدق بعلية الأشياء المحسوسة بعضها لبعض ولم نكوّن عن مبدأ العلية فكرة تصديقية، فهل معنى ذلك أننا لا نتصور مبدأ العلية أيضاً ؟ وإذا كنا لا نتصوره فما الذي نفاه (دافيد هيوم) ؟ وهل ينفي الإنسان شيئاً لا يتصوره؟)[1].

إن عدم شمولية وتناول الحس لمفهوم العلية، والجوهر والعَرَض والإمكان والوجوب... وغيرها من المفاهيم التي يدركها الذهن ولم تكن في متناول الحس، أقول هذا كفيل في الاستدلال به على فشل النظرية الحسية وتعميمها لكل مبادئ الإدراك الذهني.

---

(١) فلسفتنا، ص ١٠٩، الطبعة الثالثة، ١٤٣٠ هـ.



المقام الثاني

مصدر التصور في نظر الفلسفة الإسلامية

٤ - نظرية الانتزاع :

إن الإسلام له نظرية خاصة في هذا المضمار، وتعتبر نظرية وسطى من بين النظريات المتقدمة، فليست تميل إلى النظرية الأفلاطونية، ولا بالنظرية الحسية أو العقلية المحضتين.

إن هذه النظرية الإسلامية لها براهينها وأدلتها الخاصة المستقاة من الينبوع الصافي والمنهل العذب، إنها مأخوذة من روح القرآن.

تذهب نظرية الانتزاع في حقل التصورات الذهنية، إلى أن مصدره الحقيقي ينقسم إلى نوعين :

الأول: هي التصورات الأولية، وهذه إنما تتولد من الإحساس الخارجي الذي يتقوم بإحدى الحواس الخمس (فنحن نتصور الحرارة لأننا أدركناها باللمس، ونتصور

اللون لأننا أدركناه بالبصر، ونتصور الحلاوة لأننا أدركناها بالذوق، ونتصور الرائحة لأننا أدركناها بالشم)[١] ووظيفة هذه الحواس وبمعونة الأعصاب الدقيقة التي تحتويها إنها تنقل صورة عما أحسته إلى الجهاز العصبي (الذهن) فعندها يأخذ صورة عن الشيء المحس هذا في حقل التصور فقط، وأما في حقل الحكم والتصديق فلا يكفي هذا الدور في تكوينه، بل المعتمد والمكمل لهذا الدور لحصول الحكم والجزم إنما هو العقل، كما يقول (كانت) في نظريته عن المعرفة.

وخلاصة القول إن النظرية الإسلامية تذهب إلى أن الإحساس بالأشياء هو السبب في تصوره الذهني.

الثاني: بعد أن يقوم الإحساس بدور تكوين التصور الذهني، وتصوره للأشياء المحسوسة، يقوم الذهن بعد هذا كله بدور الابتكار في مجال تصورات ثانوية لا تستند إلى الإحساس مطلقاً، وإن كان هذا بفضل ما قدمه له الحس في

---

(١) فلسفتنا، ص ١١٠، الطبعة الثالثة، ١٤٣٠ هـ.

المرحلة الأولى، إلا أن هذه التصورات الثانوية غير مستندة إليه إطلاقاً بشكل مباشر، وإنما هي مفاهيم انتزاعية كمفهوم العلة والمعلول، والجوهر والعرض، والوجود والوحدة.

ويضرب أستاذنا الشهيد الصدر ﷺ مثالاً على أن هذه المفاهيم ليست مستوحاة من الإحساس الخارجي، وإنما هي منتزعة من التصورات الأولية - بمفهوم العلة - والمعلول فيقول: (نحن نحسُ مثلاً بغليان الماء حتى تبلغ درجة حرارة ماءه، وقد يتكرر إحساسنا بهاتين الظاهرتين - ظاهرتي الغليان والحرارة - آلاف المرات ولا نحس بعلية الحرارة للغليان مطلقاً، وإنما الذهن هو الذي ينتزع مفهوم العلية من الظاهرتين اللتين يقدمهما الحس إلى مجال التصور)[1].

وبهذه النظرية الدقيقة نفهم بطلان النظرية الحسية والتي كان يقول بها (جون لوك) فإننا لا يمكن أن نؤمن بما تذهب إليه من الإحساس بأنه هو الممون الوحيد

---

(١) فلسفتنا، ص ٦٩ و ١١٠، ط ثالثة دار التعارف بيروت ١٤٣٠هـ.

للذهن البشري فقط حيث أن الإحساس له وظيفة معينة، وهي نقل صور المحسوسات بمعونة الشبكة العصبية إلى الذهن ليس إلا، ثم الذهن بعد ذلك يتلقاها، ويقوم بتعقلها والاجتهاد فيها فينظر في واقعيتها ومطابقتها للخارج فقد يقدم الإحساس للذهن شيئاً تخيله وليس له واقع، كما يكون هذا في حالة النوم.

و (جان لوك) هو أعجز من أن يرجع المفاهيم الانتزاعية إلى الحس، حيث أنها ليست في متناول الإحساس، حتى يقدمه إلى الذهن، فلم يكن هناك بد من الجنوح إلى القول بنظرية الانتزاع.

وأيضاً ببركة نظرية الانتزاع ندرك مدى بطلان نظرية أفلاطون المصطلح عليها بنظرية الاستذكار، فإنها لم تؤيد من قبل الفلاسفة، ولأنها قائمة على نظرية (المُثُل) المعروفة عنه.

وإلى هنا نأتي على نهاية القسم الأول الذي يتضمن الدرس والتحقيق حول (التصور) ومصدره في الفلسفة.

القسم الثاني

مصدر التصديق في الفلسفة الميتافيزيقية، والمادية



تمهيد

بعد أن قمنا بطرح بعض المذاهب الفلسفية في مصدر (التصور) لكلا المدرستين الوضعية، والإسلامية، ودرسناها وعرفنا ما يحظى بالبرهان والدليل العلمي منها، ننتقل الآن لدراسة المرحلة الثانية من نظرية المعرفة، لكي نضع أيدينا على الخيوط الأولية لمصدر (التصديق)، والذي يعتبر في الحقيقة القلب النابض للمعرفة البشرية، والركيزة الأولى لشتى ميادين العلوم، والمنطلق الأول لمعرفة كيفية الوصول إلى كشف الستار عن حقائق متعددة في مختلف حقول العلم، والذي لا يتم إلاّ ببركة (التصديق)، (أي أن نصدق ونجزم بما توصلنا إليه) فمهما كان عندنا من تفوق في مجال التجربة ووصلنا إلى لب حقائق الطبيعة التي نخضعها لسلطان

التجربة، فما لم نجزم ونصدق بما توصلنا إليه، فإنه لا أثر له على الصعيد العلمي.

فالتجريبي الذي يقوم في داخل مختبره بتمديد الحديد على النار، لو قام بهذا العمل آلاف المرات، على عشرات آلاف القطع، فإنه إذا لم يجزم ويصدق، فإنه سوف لن يضع قاعدة علمية يقول فيها: (كل حديد يتمدد بالنار)، وكذا لو شاهد آلاف الظواهر المنبثقة من غيرها، فإنه إذا لم يحصل عنده جزم وتصديق ذهني متنزع من تلك الظواهر لن يقول: (لكل معلول علة، أو لكل مسبب سبب يصدر منه) ويضع بذلك قاعدة علمية عامة يستفاد منها، وما هذا إلا لفقده الجزم والتصديق بتلك الظواهر.

ونحن هنا لا نريد أن نبحث عن كيفية الوصول إلى الجزم، وما هي الأساليب التي بها يمكننا أن نربح التصديق الذهني، ليدر علينا القواعد العلمية العامة لنتقدم إلى الأمام ؟

إن هذا اللون من السؤال ليس في وسع الفلسفة أن تجيب عليه، إذ أنه ليس من شأنها وضع الطرق والأساليب للوصول إلى المعرفة. إن السؤال الذي يمكنها أن تجيب عليه إنما هو ما هي حقيقة المعرفة البشرية، وما هو مصدر (التصديق) الذي به يمكننا الانطلاق إلى شتى ميادين (العلم) المتنوعة ؟

والذي نريد بحثه هنا هو استعراض ما أمكن طرحه من المذاهب الفلسفية لكلا المدرستين الميتافيزيقية والمادية: تاركين القارئ الكريم، أن يستخدم بصيرته، وثقافته الحرة، وعقله السليم في اختيار ما هو الحق من المذاهب المعروضة بين يديه، لينظر أيّ المذاهب التي تحكي البراهين الحقة، ويحتوي على الدليل العقلي، والاستقرائي، والتجريبي. ليأخذ به وينبذ ما عداه **﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء﴾**[١].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.

وبدراستنا لكلا المدرستين الفلسفيتين الإسلامية الميتافيزيقية، والمادية الوضعية سنتناول فيها بالدراسة والتحليل، المذهب العقلي (وهذا ما تتبناه المدرسة الإسلامية)، والمذهب التجريبي، والمذهب الشكي (وهذان مشمولان للمدرسة الوضعية) والاطلاع عن كثب بالقدر الذي تتيحه لي مقدرتي وظروفي في تقديم اعتذاري مسبقاً بعدم الاستيعاب الشامل لآراء هذه المذاهب وما يرد عليها من نقد علمي وفلسفي، لافتقاري لمصادرها، كما والتمس من كل قارئ موضوعي بما يرشدني ويتحفني به من ملاحظاته السديدة، لأكون له شاكراً مقدراً.

(١)

المذهب العقلي

ومصدر (التصديق) عنده

أ - مصدر التصديق في المدرسة الأرسطية.

ب - مصدر التصديق في المدرسة الإسلامية.

❖ ما هو التصديق ؟

عرّفَ أستاذنا الشهيد الصدر ﷺ (التصديق) بأنه: (الإدراك التصديقي الذي ينطوي على الحكم ويحصل به الإنسان على معرفة موضوعية)[1].

وبهذا التعريف نفهم أن الشهيد الصدر الأول ﷺ يرى أن المعرفة في الذهن البشري إنما هي إدراك ذهني للأشياء، إلاّ أن هذا الإدراك ينقسم من جهة كيفية إلى قسمين:

الأول: إدراك ساذج ليس معه حكم وهذا ما يكون متعلقه وموضوعه الأجزاء المنفردة المتصورة مثل إدراكي للشجرة، وللجبل، وللذهب، والإنسان، والحديد. وهذا اللون من الإدراك عبّر عنه الفلاسفة بالإدراك الساذج (أي لا حكم ولا جزم معه) ويفسروه بالتصور.

الثاني: إدراك معه حكم وتصديق من جهة ذهنية، وهذا ينبع من قضية لها طرفان أو أكثر. الأول: هو

---

(١) فلسفتنا ، ص ٧٠ و ١١١، الطبعة الثالثة، ١٤٣٠ هـ.

الموضوع، والثاني هو المحمول، ثم يقوم الذهن بعملية ربط أحدهما بالآخر وإثباته له، بعد تصور كلٍّ من الطرفين تصوراً ساذجاً، مثل حكمي بأن الذهب معدن، والإنسان حر، والحق ينتصر، والطغاة يخسرون، وهذا كله لا يكون إلا بتصور الطرفين، تصور الإنسان والحرية، تصور الحق وما يتقوم به، ثم تصور الانتصار وما يتقوم به أيضاً، وبعد هذا التصور الساذج يقوم الذهن بحمل أحدهما على الآخر وإثباته له.

وهذا الإدراك يمتاز عن الأول، بصفتين رئيستين:

الأولى: إن هذا الإدراك لا يتحقق إلاّ في ظل قضية لها طرفان يقوم الذهن بعملية الربط بينهما بعد اجتياز مرحلة الإدراك الساذج لهما بشكل منفرد.

الثانية: إن الإدراك التصديقي يحمل في طياته صفة الحكم والجزم بعد عملية الربط بين الطرفين.

وهاتان الميزتان لا يتحلى بهما الإدراك الساذج (التصور)، ولهذا نقول إنهما مختلفان من جهة الكم

والكيف، إذ أن الإدراك التصديقي بتحليله يرجع إلى إدراكين، إدراك ساذج، وهو الذي يقوم بتصور كل من الطرفين على حدة، وإدراك تصديقي وهو الذي يتكفل عملية الربط بين الطرفين، فهما من جهة الكم مختلفان، وأما من جهة الكيف فكذلك، إذ أن الإدراك التصديقي أكثر متانة وقوة من الأول لما فيه من الجزم والتصديق بما تصوره الذهن لكلا الطرفين من القضية.

وبعد أن عرفنا في القسم الأول من بحث (نظرية المعرفة) آراء المذاهب في المدرستين الوضعية، والإسلامية - الخيوط الأولية للإدراك الساذج، وفهمنا منهما ما كان يعتقده البرهان العقلي والدليل العلمي، نريد أن نعرف الآن في مبحث التصديق، أو الإدراك التصديقي، ينبوعه الأصيل الذي يصدر عنه، مستعرضين في هذا المجال المذهب العقلي، الذي تتبناه الفلسفة الميتافيزيقية، ودراسة المذهب التجريبي الذي تتبناه الفلسفة المادية، في بحث مستقل إن شاء الله تعالى.

المذهب العقلي

(أ)

المدرسة الأرسطية

ومصدر (التصديق)



توجد مدرستان في الفلسفة الميتافيزيقية، للتعبير عن المصدر الأساسي للمعرفة البشرية، والوقوف على خيوطها الأولية، ونحن في هذه الدراسة نطرح فكر المدرسة (الأرسطية) والاطلاع عن كثب لمعرفة صحة ما تدعيه من عرضها للمبادئ الأولية للمعرفة في الذهن البشري، مكتفين في هذا بما طرحه أستاذنا الشهيد الصدر الأول ﷺ في كتابه القيّم (الأسس المنطقية للاستقراء) لطبيعة موقف (أرسطو) من نظرية المعرفة.

قال ﷺ: (إن المنطق الأرسطي يرى أن قضايا المعرفة البشرية الجديرة بالثقة والواجبة القبول، هي القضايا التي تتسم بطابع اليقين، ويريد باليقين تصديق العقل بقضية تصديقاً جازماً لا يمكن زواله أو زعزعته،

فكل قضية يتاح لها هذا اللون من التصديق تعتبر قضية يقينية)[1].

ثم يستطرد ﵀ في تعريف القضايا اليقينية على ضوء مدرسة (أرسطو) فيقول: (والقضايا اليقينية على قسمين:

الأول: القضايا اليقينية المستدلة أو المستنتجة التي اكتسبت طابعها اليقيني بوصفها نتيجة لقضايا يقينية سابقة.

الثاني: القضايا اليقينية الرئيسة التي تشكل المنطلقات الأولية لليقين في المعرفة البشرية، وتضع حداً وبداية للتسلسل في استنتاج القضايا بعضها من بعض)[2].

ونحن هنا نذكر القضايا الأولية التي اعتبرها المنطق (الأرسطي) هي المنطلق الأول للمعرفة البشرية، وقد صنفها إلى ستة أصناف، نذكرها باختصار:

---

(١) الأسس المنطقية، ص ٤١٣.

(٢) الأسس المنطقية، ص ٤١٣.

القضايا الست الأولية

للتصديق عند أرسطو



١- **الأوليات:** ويريد بها أرسطو كل قضية يحصل من تصور طرفيها الجزم والتصديق بها من دون أن يستعين في ذلك إلى برهان خارجي من إحساس أو تجربة مثلاً.

ففي قولنا (النقيضان لا يجتمعان، ولا يرتفعان، كل حادثة لها سبب أو كل مسبب له سبب: الكل أعظم من الجزء، الواحد نصف الاثنين).

فالإنسان ما أن يتصور جزئيات هذه القضايا، لا يتوقف في إصدار حكمه من دون حاجة في ذلك للرجوع إلى التجربة وغيرها، فبتصوره للنقيضين الوجود والعدم، فإنه يحكم بعدم اجتماعهما، وهكذا ما أن يتصور الكل والجزء يعرف أن الكل أكبر من الجزء، وهذا أصغر من ذاك.

٢- **المحسوسات:** كل قضية لا يكفي تصور طرفيها لإصدار العقل حكمه وتصديقه بها، الا بعد أن يستعين في ذلك بواسطة الحس، الذي يزود العقل بأشياء

مبعثرة ومتفرقة، عن طريق المراسلات العصبية، وبعدها يصدر العقل حكمه.

والحس الذي يقوم بعملية تزويد (العقل) بأشياء غير منسقة ومترابطة على نمطين:

الأول: ما يتقوم بالحواس الخمس، والتي لا تعمل إلاّ في الواقع الخارجي، وهذه يعبر عنها (أرسطو) بالحسيات مثل تصديقنا بأن (الأرض كروية، وأنها متحركة، والنار حارة، والجو حار، أو بارد، وأن المثلث يساوي قائمتين حادتين) فهذه القضايا لم يؤمن (العقل) ويصدق بها، إلاّ بعد أن كانت مشمولة للحس الظاهري.

الثاني: ما يكون حكم (العقل) فيه بواسطة الحس الباطني الذي لا ربط له بإحدى الحواس الخمس، والتي يطلق عليها (أرسطو) بالقضايا (الوجدانية) كتصديق الإنسان (إنّ له جوع مثلاً، وأنّ له علم، وأنّ له نفس، وأنّ له خوف) فإن التصديق بهذه القضايا وما شابهها يرجع إلى حسنا الباطني ووجداننا الداخلي.

٣- **التجريبات:** ويقصد بها ما كان الحكم والجزم فيها نتيجة المشاهدة المتكررة سواء كانت هذه المشاهدة محض مشاهدة غير متقومة بالتجربة مثل حكمنا بأن النار حارة أو كانت مشاهدة متقومة في حقل الصناعة، كصاحب المصنع الذي قام آلاف المرات بوضع قطع حديدية في النار فرآها تتمدد، فإن إصدار حكمه بأن (الحديد يتمدد بالنار) إنما كان للمشاهدة المتكررة.

٤- **المتواترات:** ويعني بها (أرسطو) القضايا التي يحكم (العقل) بها بواسطة أخبار أعداد كثيرة بما يمتنع تواطئهم على الكذب، (كالعلم بوجود البلاد البعيدة التي لم نشاهدها، أو الأمم والأشخاص الذين لم نعاصرهم).

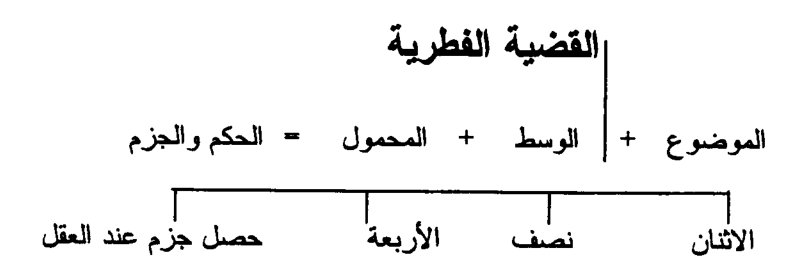
٥- **الحدسيات:** (وهي قضايا يحكم بها (العقل) على أساس حدس قوي من النفس يزول معه الشك، مثل حكمنا بأن القمر مستفاد نوره من نور الشمس، ومنشأ الحدس الذي يسبب هذا الحكم هو اختلاف تشكل نور القمر عند اختلاف نسبته من الشمس قرباً وبعداً)[1].

---

(١) الأسس المنطقية للشهيد الصدر ﷺ، ص ٤١٤.

٦- **الفطريات:** وهي كل قضية لا يكون تصور طرفيها، الموضوع والمحمول، مولداً التصديق والحكم العقلي، كما في الأوليات (الكل أعظم من الجزء) مثلاً، بل لا بدّ لديه من صدور الحكم (العقلي) بحضور الوسط، (فالعقل) حينئذٍ يحكم بصدق القضية بخصوص الوسط عن العقل، مثل (١+١=٤) فإن قولي واحداً زائداً واحداً يكون مساوياً لاثنين، حيث أن الاثنين هو عبارة عن ضم واحد إلى واحد، ولكن هذا الجزم من العقل بهذه القضية الفطرية لم يكن إلا بحضور الوسط، الذي لولاه لما حصل ربط بين الموضوع (١) والمحمول (٢) فتصوري الواحد، وتصوري للاثنين لا يمكن أن يحصل لي جزم بالقضية، بل لا بد من حضور الوسط الرابط، وذلك بتصوري لواحد مع واحد آخر، وتصوري للاثنين حينئذٍ يحصل الحكم العقلي بأن واحداً وواحداً هو عبارة عن اثنين، وهكذا في المثال الذي أورده الشهيد الصدر ﷺ بأن (الاثنين نصف الأربعة) فيحكم العقل في هذه

القضية بأن الاثنين نصف الأربعة لم يكن فقط من تصور الاثنين، والأربعة، فإن هذا لا يكفي في الجزم بأن الاثنين نصف الأربعة ما لم يحضر عندنا الوسط وهو تصورنا ونصف).



القضية التي لا جزم معها

الموضوع + بلا الوسط + المحمول = التصور الساذج

الاثنان ... الأربعة ... لا يوجد تصديق للعقل

وفي هذا الجدول نرى أنه لم يحصل (للعقل) سوى التصور الساذج للاثنين بمفرده، والأربعة بمفردها، حيث لم يوجد رابط بينهما، ليؤدي هذا إلى حكم العقل.

تبين لنا في هذا القسم الثاني من قسمي القضايا اليقينية، والذي كان (أرسطو) يوليه أهمية كبرى، من حيث النواة الأولى لمنبع المعرفة البشرية، ويعتبر هذه القضايا الست هي الأساس الرصين لتشكيل القضايا المستدَلة المستنتَجة، فكل قضية من القضايا، في أي حقل من حقول العلم ما لم تُستنمدّ وتُستنتج وتكون مستدَلَة من القضايا الست بشكل مباشر أو غير مباشر، لا يمكن أن تكتسب طابعها اليقيني من نفسها.

❖ نقد برهاني لمصادر المعرفة في مذهب (أرسطو):

إن نظرية المعرفة، التي حدد مصادرها وعينها المذهب العقلي في مدرسة (أرسطو) لم تكن عارية من بعض الأخطاء التي سجلها عليها بعض الفلاسفة الإسلاميين. ونحن في هذه الدراسة سوف نعرض ونقدم للقارئ الكريم نقد مدرسة السيد الشهيد الصدر ﷺ في كتابه الواسع (الأسس المنطقية للاستقراء) الذي يعتبر

بحق أحد رواد علم الفلسفة، وأكبر النابغين فيها في عصرنا الحاضر.

وها نحن نذكر ما سجله على المدرسة (الأرسطية) في جانب مصادر المعرفة البشرية الأولية (القضايا الست) فقط، بشكل مقتضب لاعترافنا بعدم القدرة للإحاطة بكل النقاط التي أخذتها مدرسته ﷺ على الموقف الأرسطي من نظرية المعرفة.

ولا ننسى ونحن بهذا الصدد أن نذكر القارئ العزيز من أن السيد الشهيد الصدر ﷺ لم يكتفِ بمناقشة القضايا الست لمذهب (أرسطو) بل ناقش على ضوء الأسس الأولى للاستقراء في مدرسته، القضايا المستدلة والمستنتجة، وأثبت أنها قضايا مشمولة للاستقراء، ودراستنا إنما هي في حدود القضايا الأولية التي اعتبرها المذهب الأرسطي، النواة الأولى لتكوين المعرفة الإنسانية.

١- هل القضية التجريبية أولية؟

المنطق (الأرسطي) كان يعتبر القضية (التجريبية) من القضايا الأولية والينبوع الأصيل للمعرفة الإنسانية، والسؤال الذي يطرح كيف يعتبرها المنطق الأرسطي، أولية؟ مع أنها متقومة بقضايا حسية متعددة، فالمفهوم القائل بأن (كل حديد يتمدد بالحرارة) إنما كان نتيجة إحساسنا بأن هذا الحديد قد تمدد بالحرارة، وهذه القطعة تمددت بالحرارة وهكذا، فهذا يدلل أن منبعها التجربة لا العقل كما يقول (أرسطو) فلا تكون أولية.

ويجيب (أرسطو) في هذا المجال بأن القضية التجريبية (كل حديد يتمدد بالحرارة) غير مستنتجة ولا مستدلة من القضايا المحسوسة (هذا الحديد تمدد بالحرارة) و (تلك القطعة تمددت بالحرارة) إلى غيرهما من القضايا المشاهدة، لكي تكون القضية ثانوية ذات طابع مستدل، وبه تفقد طابعها العقلي كقضية أولية.

أما لماذا لم تكن القضية التجريبية مستدلة من القضايا الجزئية المشاهدة؟

فالمنطق الأرسطي يجيب (لأن القضية التجريبية أكبر من مجموع تلك القضايا المحسوسة، لأنها تشتمل على التعميم لعدد أكبر من الحالات، فلا يمكن أن تكون مستنتجة منها)(١).

وبهذا خرج (أرسطو) بأن القضية لا يمكن أن تكون مستدلة من القضايا الأولية وإنما هي نفسها من الأوليات ولكن بشكل غير مباشر.

ومرة أخرى يستدل (أرسطو) بأن القضية التجريبية أولية بربطها بمبدأ عقلي يقول: (إن الاتفاق لا يكون دائماً ولا أكثرياً) بمعنى أن الصدفة النسبية لا تتكرر، والقضية التجريبية (كل حديد يتمدد بالحرارة) تكتسب طابعها العقلي من القضايا العقلية القبلية.

---

(١) الأسس المنطقية، ص ٤٢١.

ويمكننا القول بشكل ملخص أن نقول بأن (أرسطو) له أسلوبان في الاستدلال على أن القضية التجريبية من الأوليات، لا المستدلات الثانوية:

الأول: أثبت أنها أولية، (بأسلوب استدل فيه أنها ليست من القضايا المستدَلَة بحجة أنها أكبر من القضايا الجزئية، فلا يمكن أن تكون منتزعة منها، فإذاً هي عقلية وأولية.

الثاني: أمكنه أن يرجع القضية التجريبية إلى قاعدة عقلية قبلية تقول: (إن الاتفاق الصدفة النسبية[١] لا يكون دائمياً ولا أكثرياً) واعتبرها مشمولة لهذه الأخيرة، فهي على هذا عقلية.

---

(١) الصدفة قسمان: مطلقة وتعني وجود شيء بلا سبب إطلاقاً وهذه مستحيلة في المذهب العقلي، ونسبية وهذه تعني اقتران حادثة مع توفر أسبابها، بحادثة أخرى صدفة، راجع الأسس المنطقية، ص ٤٠.

وللسيد الشهيد الصدر ﷺ موقف من الإدعاء الذي قدمه (أرسطو) أثبت فيه بالدليل العلمي، فشل (أرسطو) في إثبات مدعاه بأمرين:

أ - (إن كل قضية من القضايا الجزئية المكوّنة للاستقراء تثبت كامل مدلول القضية التجريبية، لا جزءاً منه فحسب - كما يدعيه أرسطو)[1].

وبما أن القضايا الجزئية (هذا الحديد تمدد بالحرارة، وهذا الحديد تمدد بالحرارة، وهذا الحديد تمدد بالحرارة) يشكل قياساً ناقصاً لعدم استيعابه لكل حديد في الوجود، لا بد له من مكمل يسد هذا النقص، ليثبت كامل مدلول القضية التجريبية (كل حديد يتمدد بالحرارة)، وليس هو إلاّ الأدلة الاحتمالية التي تضاف إلى القضايا الجزئية، والأدلة الاحتمالية هذه لا يكون إثباتها إلاّ بمن يؤمن بالمذهب العقلي القبلي، للسببية، فلا بد من أن

---

(١) الأسس المنطقية، ص ٤٢٣.

يؤمن أولاً بأن القضايا التي شاهدها (هذا الحديد تمدد... وهذا الحديد تمدد...) لم يحدث عن طريق الصدفة، وأنها جاءت بسبب، ثم يؤمن بأن السبب موحداً غير متعدد بتعدد القضايا الجزئية، وبعد هذا يحتمل في كل حديدة تمددت في العالم، عدة احتمالات، إنها تمددت لوجود عنصر معين فيها مثلاً، ولم تكن الحرارة، واحتمال أنها تمددت بسبب الحرارة، ويرى أن هذا الاحتمال، إذا ما قاسه والمعادلات الرياضية، أكبر من بقية الاحتمالات، فينبثق من تراكم هذه الاحتمالات درجة كبيرة من التصديق بسببية الحرارة للتمدد، وهبوط قيمة بقية الاحتمالات الأخرى.

ويخرج المتابع لهذا الاستدلال، أن القضية التجريبية مستدلة ومستنتجة من شيء مساوي لها، يعني القضايا الجزئية المشاهدة، والأدلة الاحتمالية التي أحرزت درجة عالية من التصديق[١].

---

(١) للمزيد من التوسع راجع (المرحلة الاستنباطية للدليل الاستقرائي) من كتاب الأسس المنطقية للإمام الصدر ﷺ، ص ٢٥٤-٤٢٣.

ب - الأمر الثاني، أنه من المعلوم، أن القضايا الأولية يقينية، والقضية التجريبية ليست كذلك، لما تبين في الاستدلال الأول أنها مستدلة ومأخوذة، من القضايا الجزئية، وتراكم الاحتمالات، وهذا لا يولّد اليقين النفسي، وإذاً هي ليست من سنخ القضايا الأولية، والنتيجة من هذه الدراسة الموضوعية، أن الأسلوب الأول من أسلوبي (أرسطو) لم يقم على برهان علمي[1].

وهكذا برهن فيلسوف الإسلام ﵀ على بطلان الأسلوب الثاني، ولكن هذه المرة لم يكن لنفس القضية التجريبية، وإنما حاول، أن يناقش (أرسطو) في لب القضية التجريبية، والتي منها تستمد طابعها القبلي وهي (إن الاتفاق لا يكون دائمياً ولا أكثرياً) المستبطنة لقولنا: (كل حديد يتمدد بالنار).

قال ﵀: (ونحن نؤمن بالمعرفة العقلية القبلية.. ولكننا ننكر في نفس الوقت أن يكون المبدأ القائل أن

---

(١) الأسس المنطقية، ص ٤٢٤.

الاتفاق في الطبيعة لا يكون دائمياً ولا أكثرياً معرفة عقلية قبلية، فنحن وإن كنا نعلم بأن الاتفاق في الطبيعة لا يكون دائمياً ولا أكثرياً، إلا أن علمنا بذلك ليس علماً عقلياً قبلياً، بل هو نتاج من نتاجات الدليل الاستقرائي نفسه...)[1].

وفي مقام الجواب وحل الطلسم الأرسطي الذي هو معقد جداً، طرح فيلسوفنا ﷺ سؤالين: يعجز المنطق الأرسطي من الإجابة عليهما معاً.

س - (هل ينفي (المنطق الأرسطي) تكرر الصدفة النسبية على مستوى الوقوع فحسب، أي أن ينفي وقوع التكرار، أو ينفي الإمكان، ويقرر استحالة تكرار الصدفة النسبية ؟)[2].

فإن كان (المنطق الأرسطي) يرى أن مبدأ عدم تكرار الصدفة النسبية، يلتقي مع المبدأ القائل باستحالة

(١) الأسس المنطقية، ص ٣٩.
(٢) المصدر نفسه، ص ٤٨.

اجتماع النقيضين، الذي هو من القضايا الأولية لدى الذهن، أي أنه كما تكون النتيجة في (الكتاب موجود + الكتاب غير موجود = مستحيلاً في عالم الذهن والخروج، كذلك تكون النتيجة نفسها في (الحصول على رقم واحد من بين مئة رقم في خمسين محاولة بشكل متتالي ومترتب كلما شوشنا الأرقام + الصدفة النسبية = مستحيلة في عالم الذهن والخارج لعدم تكرار الصدفة.

فإن قصد المنطق الأرسطي، إن هذا المبدأ الثاني - الذي يعتبره من الأوليات - لا فرق بينه وبين مبدأ التناقض من حيث النتيجة، قلنا بالفرق الواضح، في العالم الخارجي، إذ أنه في الوقت الذي نؤمن فيه باستحالة اجتماع الوجود والعدم، وعدم وجود عالم تتعايش فيه الأشياء مع أعدامها، واستحالة تكرار الصدفة النسبية على خط طويل، في عالم الذهن، إلا أننا في عالم الخارج، لا نتصور هذه النتيجة، فإننا في عالم الوقوع نفرق بينهما، إذ أنه مستحيل أن يقع التناقض في شيء

واحد (أنا موجود ولا موجود) ولكن هذا لا نراه في الصدفة المتكررة، فإنه بالرغم من أننا لا نرى استحالتها من الناحية النظرية، فنتصور وقوعها بشكل متكرر، مع أنها لم تقع في العالم الخارجي، فالفرق هو: (مبدأ عدم التناقض) = مستحيل نظرياً في عالم الذهن والخارج، و(مبدأ عدم تكرار الصدفة على خط طويل) = غير مستحيل نظرياً، ومستحيل وقوعها في عالم الخارج.

(وإذا كان المبدأ الأرسطي ينفي تكرار الصدفة النسبية في عالمنا الذي نعيشه، مع الاعتراف بإمكان تكرارها، فمن الطبيعي أن لا يكون هذا المبدأ من المبادئ العقلية الأولية المستقلة عن التجربة، لأن هذه المبادئ (الأولية) حينما تنفي أو تثبت تستند دائماً إلى الاستحالة والضرورة، وإذا ما أدركنا إمكان شيء ما، فكيف نستطيع أن ننفي وقوعه بصورة منفصلة عن الحس والتجربة؟)[1].

---

(١) الأسس المنطقية، ص ٤٨.

وهذا لا يحتاج إلى برهان، لأن المبادئ الأولية إنما تستمد أحكامها من (العقل) لا التجربة فحري بها أن تكون قطعية، في جانب السلب، أو الإيجاب، فلو كان مبدأ عدم تكرار الصدفة النسبية، منبعه (العقل) كما يدعيه المنطق الأرسطي، لكان الحكم قطعياً، لا أن ينفيه، مع إمكان تكرارها، فإن هذا يدل على عدم قطعية الحكم، فلا يصلح إذاً أن يكون من المبادئ الأولية.

٢- هل القضية الحدسية أولية؟

إن (المنطق الأرسطي) يعتبر القضايا الحدسية كالقضايا - التجريبية - بلا فرق بينهما فإن الحدس في استعارة القمر نوره من الشمس، على أساس أن نوره، يزداد ويضعف كلما تغيرت نسبته إلى الشمس، وكذا في الحدس القائل بأن الحرارة سبب لتمدد الحديد، نتيجة مشاهدته للاقتران المتكرر بينهما في كثير من الحالات، فإنه يرى مثل هذه القضايا من الأوليات، في تصنيفه

الاعتيادي للقضايا، وبشكل أدق يرجع القضايا - الحدسية- إلى المبدأ العقلي الذي اعتبره شاملاً للقضايا التجريبية، وهو (إن الاتفاق - الصدفة النسبية - لا تتكرر باستمرار)، (فلو لم يكن نور القمر مستمداً من الشمس لما اقترن الاختلاف في نسبة القمر إلى الشمس قرباً وبعداً باختلاف في تشكل نوره، لأن الصدفة لا تدوم)[١].

وفيلسوفنا الشهيد الصدر ﷺ موقفه من المنطق (الأرسطي) في القضية (الحدسية) يلتقي تماماً بموقفه السابق من القضية التجريبية، قال: (ورأينا في القضية الحدسية هو رأينا المتقدم في القضية التجريبية)[٢]، وذلك لأن المنطق (الأرسطي) انطلق في استدلاله هنا من نفس المبدأ العقلي في القضية التجريبية، فراجع ص ٥٠.

---

(١) الأسس المنطقية، ص ٤٢٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٢٥.

٣- هل القضية المتواترة عقلية ؟

والمنطق (الأرسطي) اعتبر القضية - المتواترة - من القضايا المنبثقة من (العقل)، فإخبار جماعة كثيرة بهطول الأمطار الغزيرة في (الهند) مثلاً أيام الصيف، يوجد هذا تصديقاً في نفوسنا، ولكنه تصديقاً أولياً.

ويعرف المنطق (الأرسطي) التواتر بأنه (إخبار جماعة يمتنع تواطئهم على الكذب)، ويرجع في استدلاله هنا، للقضية - المتواترة - في أنها أولية غير مستدلة إلى (أن الكذب لا يكون دائمياً)، (فإذا أطرّد الأخبار عن شيء معين من عدد كبير من المخبرين، عرفنا أن القضية التي اتفقوا على الإخبار عنها صادقة).

وقد رد أستاذنا الشهيد الصدر ﵀ زعم المنطق (الأرسطي) ودلّل على أن القضية - المتواترة - ليست إلا مستدلة ومستنتجة من الاستقراء، فتصديقنا بالخبر إنما هو استقرائي، حيث أن المبدأ الذي انطلق منه

(أرسطو) لإضفاء طابع العقلية على القضية - المتواترة، وهو مبدأ (الكذب لا يكون دائمياً) ليس هو في نظر الشهيد الصدر ﷺ إلا استقرائي، لقيامه على المناهج الاستقرائية، كما في المبدأ القائل (إن الاتفاق لا يكون دائمياً ولا أكثرياً)، القائم على أساس التجربة، نعم العلم بهذا المبدأ أو ذاك إنما هو أولي عقلي، ليس قائماً على أساس التجربة، أو الاستقراء، وإلا للزم منه الدور.

وإذا كان مبدأ (الكذب لا يكون دائمياً ولا أكثرياً) الذي يعتبره (أرسطو) مصدر القضية المتواترة، والذي منحها طابع اليقين الأولي، ليس إلا مبدءاً - استقرائياً - فمن باب أولى أن لا تكون القضية المشمولة له أولية، وإلا لأعطى ما يفقد وهذا مستحيل)[1].

---

(١) مزيداً للاطلاع راجع القضية المتواترة ص ٤٢٦ من الأسس المنطقية.

٤- هل القضية المحسوسة أولية ؟

من المعلوم أن المنطق (الأرسطي) قسم القضايا الحسية إلى قسمين: وجدانيات وحسيات، على ضوء تقسيمه الحس في الإنسان إلى قسمين: ظاهر وباطن، فما كان منبثقاً من الحس الباطني كان من القضايا الوجدانية كعلمنا بالجوع، والألم، والخوف مثلاً، وما كان من الحس الظاهري متولداً عبّر عنه بالقضايا الحسية مثل علمنا بأن الشمس طالعة، وأن الماء يغلي إذا وضع على النار.

والمنطق (الأرسطي) لا يرى فرقاً في طبيعة يقيننا بكل من (الوجدانيات، والحسيات) فهو يقين أولي.

ولكن سيدنا الصدر ﵀ وافق المنطق (الأرسطي) في القضايا - الوجدانية - واعتبرها من الأوليات، (ولا شك في أن القضايا المطلوب إثباتها بالحس الباطن أولية، لأن الإنسان في هذا القسم من الإدراك الحسي يتصل

بصورة مؤكدة بمدلول القضية المطلوب إثباتها بهذا الحس مباشرة...)[1].

فالحس الباطني لا يتصل بمفهوم الجوع أو اللذة، وإنما يتصل مباشرة بمدلول الجوع واللذة.

وأما القسم الأول فلم يحرز موافقته، بل أخذ يناقش ما ادعاه المنطق الأرسطي، فإن القضايا المثبتة بواسطة الحس الظاهري إنما هي إثباتات عقلية أولية لافتراض الواقع الموضوعي.

وقد رد الفيلسوف الصدر ﷺ ما ادعاه المنطق الأرسطي من الإيمان والعلم بالواقع الموضوعي للشيء المحسوس بالحس الظاهري، وقال بالشك في الواقع الموضوعي للشيء المحسوس بالحس الظاهري بإحدى صيغتين:

---

(١) الأسس المنطقية، ص ٤٥٢-٤٦٩.

الأولى: عدم تشخيص الحس الظاهري - للبرق - الذي اتصل به حسي الظاهري، وإن هذا البرق هو واقع ذاتي فهو متصل ومرتبط وجوده بنفس إدراكي وإحساسي به؟ ولا وجود له خارج تصوري الذهني؟

فالحس الظاهري وإن كان يعرف وجوداً للبرق، ولكن معرفته لوجود البرق الموضوعي والذاتي ليس معرفة أولية نابعة عن حكم العقل.

وفي هذه المرحلة لا نزال نشكك في الواقع الموضوعي.

الثانية: هو أن ما نحسه بالحس الظاهري مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجانب الذاتي، وإن ما نحسه هو حادثة ذاتية وصورة ذهنية في إدراكنا الحسي، وهذا الذي يكون وجوده مرتبطاً بالجانب الذاتي لا يفرق فيه الحال بين أن يكون له وجود موضوعي خارجي أو ليس له وجود خارجي، فنحن بإدراكنا الظاهري نحتمل أن يكون منشأه

الجانب الموضوعي الخارجي، فإذاً إدراكنا الذاتي ليس متصلاً اتصالاً مباشراً بالجانب الموضوعي الخارجي بل الحس الظاهري له اتصال مباشر بالجانب الذاتي(١).

وبهاتين الصيغتين أثبت السيد الصدر قدس سره عدم إمكان إثبات الواقع الموضوعي بالحس الظاهري، فعلى هذا ليس إثبات الواقع الموضوعي عن طريق الحس الظاهري ومعرفته من حكم العقل.

بقي علينا أن نعرف أن موضوعية البرق مثلاً ليست هي منشأ للمعرفة الأولية، فهل أن هذا الفيلسوف ذهب إلى المثالية التي لا تؤمن بالجانب الموضوعي للأشياء وإنما هي في حدود الذهن أم يذهب إلى اتجاه آخر وما هو ؟

الصحيح أنه يرفض كلا الفكرتين من المثالية والأرسطية، فلا يفترض أن الجانب الموضوعي افتراض

---

(١) راجع الأسس المنطقية، ص ٤٥٣.

خطأ وأنه دون مبرر كما تقول به المثالية، ولا يأخذ بما قاله المنطق الأرسطي من أن الإيمان بالواقع الموضوعي عن طريق الحس الظاهري هو معرفة أولية. بل يذهب إلى أن افتراض الجانب الموضوعي والإيمان به إنما هو (افتراض مستدل ومستنتج حسب مناهج الدليل الاستقرائي كالقضايا التجريبية والحدسية والمتواترة تماماً، فالتصديق الموضوعي بالواقع يقوم على أساس تراكم القيم الاحتمالية في محور معين...)[1].

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٤٥٤، ومزيداً من التوسع راجـع ص ٤٥٤-٤٦٢ من الأسس المنطقية.

٥-٦- الأوليات - الفطريات:

وهذه القضايا تمتاز عن القضايا الأربع المتقدمة في نظر المنطق الأرسطي حيث أنه يعتبرها قضايا أولية قبلية، والعقل يدركها بصورة مستقلة عن الحس والتجربة حيث أنهما لا يكوّنا المعرفة بهذه القضايا كما في القضايا المتقدمة الأربع، إذ بالرغم من أنها أولية إلا أن العقل يستعين فيها بالحس والتجربة، نعم الأوليات والفطريات تشارك القضايا الأربع في جهة تصور الموضوع والمحمول، فالإنسان لا قدرة له على هذا التصور إلا بمعرفة الحس والتجربة (اللذين يتحفان الإنسان بصور ومعانٍ كثيرة تشكل لديه المادة الأساسية لتصوراته)[1].

---

(١) الأسس المنطقية، ص ٤٧١.

وفيلسوفنا الصدر قدس سره رأيه في الأوليات والفطريات كرأيه في القضايا المتقدمة في الجملة[1]، وليس الإيمان والمعرفة بهذه القضايا من الأوليات، والفطريات إلا على أساس الاستقراء بكلتا مرحلتيه، ولا يستمد الإنسان معرفته فيها من العقل مباشرة من دون الاستقراء كما يدعيه المنطق الأرسطي.

وانطلق الفيلسوف الصدر قدس سره في إثبات مدعاه ابتداءً من تعريف المنطق الأرسطي للقضية الأولية القبلية، والتي قال عنها (القضية التي يكون محمولها ثابتاً لموضوعها ثبوتاً ضرورياً أولياً) وعلى هذا تكون الأوليات والفطريات موضوعاتها تستلزم المحمولات المناسبة لها بدون أي سبب خارجي وإنما هو ذاتي فمتى تصورنا الموضوع حكمنا مباشرة بالمحمول، فمتى تصورنا مفهوم (كل الزوايا قائمة) كان هذا مستلزماً لأن

---

(١) سوف نبين تفسير هذه اللفظة ويتضح معناها فيما يأتي إن شاء الله. ص ١٣٩.

نتصور محموله (متساويه) وكذا في (الكل أعظم من الجزء) ما أن نتصور الموضوع يكون هو مستلزماً للمحمول هذا في الأوليات، وهكذا في الفطريات والتي يحتاج تصور الطرفين إلى واسطة ولكن ليست خارجة عن الذهن، بل هي منه، وليست مستفادة من التجربة والحس، فمتى ما تصورنا مفهوم (الاثنين) كان هذا بنفسه مستلزماً لمحموله (نصف الأربعة) لأن هذا عدد ينقسم على الاثنين وعلى عدد آخر يساويه بلا زيادة، وكل ما كان كذلك فهو نصف الأربعة، فالاثنان نصف الأربعة.

والسيد الشهيد قدس سره يقول: (إن هذه الملازمة الذاتية بين الموضوع والمحمول ليست أولية قبلية لتكون أخيراً القضايا الفطرية والأولية قبلية، وإنما هي استقرائية، لقيام معرفتنا بهذه الملازمة الذاتية بين الموضوع والمحمول على أساس الاستقراء لا المعرفة القبلية كما يدعيها المنطق الأرسطي)[1].

---

(١) للتوسع في هذا المجال راجع الأسس المنطقية ص ٤٧٢-٤٧٣.

وبهذا نفهم أنه تِدّسٌ أسند المعرفة بالقضايا الست بما فيها الأوليات والفطريات إلى الاستقراء لا إلى حكم العقل بشيء مستقل أو بمعونة الحس والتجربة كما عليه المنطق الأرسطي، نعم استثنى من هذا شيئين[١]:

الأول: استثناء مبدأ عدم التناقض وهي القضية القائلة (النقيضان لا يجتمعان) حيث قال: (هذه القضية لا يمكن أن نفترض إثباتها بالدليل الاستقرائي بل يجب أن نفترض ثابتة ثبوتاً أولياً قبلياً)[٢].

وعلل هذا بأن القيم الاحتمالية المجتمعة في محور واحد والتي هي لب الاستقراء متوقف إنتاجها على قدرة كل احتمال من هذه الاحتمالات على تغير نقيضه، فإذا لم نأخذ بمبدأ عدم التناقض يعني جوزنا أن يجتمع كل احتمال من تلك الاحتمالات مع نقيضه، وهذا ما يفقد

(١) هذا تفسير لقولنا السابق في الجملة، ص ١٣٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٤٧٤.

قيمة كل الاحتمالات وينهار الهرم القائم عليها، وهو الاستقراء.

الثاني: (استثناء كل المصادرات التي يحتاجها الدليل الاستقرائي في سيره الاستدلالي بما فيها بديهيات نظرية الاحتمال)[1].

ويقول قدس سره بأن مبدأ التناقض داخل تحت هذا.

وخلاصة هذه المصادرات هي أن أي درجة من درجات التصديق بقضية من القضايا وكان الدليل الاستقرائي يحتاجها في سيره الاستدلالي فلا بد من أن تكون تلك الدرجة من درجات التصديق قبلية وغير مستدل عليها بالاستقراء وإلا لزم الدور الباطل.

وفي الحقيقة إن الشهيد الصدر قدس سره حين نسف القضايا الست الأولية والتي اعتبرها أرسطو هي مصدر

---

(١) الأسس المنطقية، ص ٤٧٤

ومنطلق المعرفة البشرية إنما كان من أجل عدم إيمانه بما ادعاهُ أرسطو في نظرية المعرفة من أن مصادرها الأساسية كلها ترجع إلى جوهر واحد وهو العقل الذي يعتبره معارف أولية وقبلية متقدمة ومستقلة عن التجربة والاستقراء وعلى أساس ذلك أمكن (أرسطو) من أن يسند الدليل الاستقرائي القائم على أساس قضايا عامة يستفيد منها الإنسان في معارفه، إن هذه القضايا قائمة ومرتبطة بقضايا عقلية قبلية، وناقشه في القضايا المنبثقة بالحس الظاهر، فلم يؤمن بأن تصديقنا بموضوعية القضية المثبتة بالحس الظاهر، بأنه أولي قبلي غير مستدل، (... فالتصديق الموضوعي بالواقع يقوم على أساس تراكم القيم الاحتمالية في محور معين، وفقاً للطريقة العامة التي فسرنا بها المرحلة الأولى الاستنباطية من الدليل الاستقرائي، ويتحول هذا التراكم إلى اليقين عند توفر الشروط اللازمة...) وقد أطنب تتَّل في تقديم البرهان الكافي لإثبات أن اليقين بالواقع

الموضوعي للقضية المحسوسة بالحس الظاهر ليس أولياً وإنما هو مستدل ومستنتج من الدليل الاستقرائي، كما في القضية التجريبية، والحدسية، والمتواترة بلا فرق[١].

وأخيراً يخرج القارئ الكريم من هذه الجولة الممتعة، التي قدمها لنا فيلسوف الإسلام ﷺ للمعرفة في المنطق (الأرسطي) بقناعة تامة يدعمها الدليل العلمي والبرهان العقلي، أن تلك الأسس لا يمكن أن تعتبر النواة الأولى والمنبثقة من العقل - خصوصاً القضايا الأربع، التي أرجعها الشهيد الصدر ﷺ كلها إلى المنهج الاستقرائي، دون أن يضفي عليها طابع القضية الأولية كما عليه المنطق الأرسطي.

هذا ولم يكتفِ ﷺ بإرجاع القضايا المتقدمة إلى الدليل الاستقرائي واحتوائه لها، بل إنه برهن ودلل على شموليته حتى للقضايا الأولية، والفطرية، التي وصفها

---

(٢) للتوسع راجع الأسس المنطقية، ص ٤٥٤-٤٦٩.

المنطق (الأرسطي) بالقبليات، وذلك على ضوء دراسته لهما من زاوية الملازمة الذاتية، بين الموضوع والمحمول كما ادعاه (أرسطو)، ففي هذا الجانب كان يقول ﷺ: (وعلاقة اللزوم الذاتي هذه بين الموضوع والمحمول، يمكن – من ناحية مبدئية – الاستدلال عليها استقرائياً) وخوفاً من التوسع الذي لا يتناسب مع طبيعة الموضوع الذي نريد بحثه، نعتذر من الدخول في طرح استدلالته وبراهينه على ما يدعيه ﷺ في هذا الجانب بالذات، فإلى كتاب الأسس المنطقية ص ٤٧٢.



المذهب العقلي

(ب)

المدرسة الإسلامية

ومصدر (التصديق)



❖ الخطوط الثلاثة في المعرفة الإسلامية:

للمدرسة الإسلامية موقف خاص من نظرية المعرفة لا تلتقي مع المذاهب المادية الأخرى، وسوف يتضح لك هذا بعد دراستنا لنظريات تلك المذاهب في المعرفة إن شاء الله.

إن نظرية المعرفة في المدرسة الإسلامية لها خطوط ثلاثة كما ذكرها أستاذنا الشهيد الصدر ﷺ.

الخط الأول: وقد قسم فيه الإدراك البشري إلى قسمين:

الأول: (التصور) وهذا ليس له قيمة موضوعية في قدرته على الكشف الخارجي، إنما يدلل على وجود الشيء في حدود الذهن ليس إلاّ.

الثاني: (التصديق) الذي يملك خاصية الكشف عن الموضوع الخارجي للمتصوَر في الذهن.

الخط الثاني: (إن مرد المعارف التصديقية جميعاً إلى معرفة أساسية ضرورية، لا يمكن إثبات ضرورتها بدليل، أو البرهنة على صحتها، وإنما يشعر (العقل) بضرورة التسليم والاعتقاد بصحتها، كمبدأ عدم التناقض، ومبدأ العلية، والمبادئ الرياضية الأولية، فهي الأضواء العقلية الأولى، وعلى هدي تلك الأضواء يجب أن تقام سائر المعارف والتصديقات...) [1]. ونستفيد من هذا الخط أمرين:

الأول: إن المعرفة الإنسانية إنما تنبثق من مبادئ عقلية أولية لا تحتاج هذه في إثبات صحتها وفعالياتها إلى دليل أو برهان، فإن العقل يسلم بها بشكل ضروري، وذلك في مثل مبدأ عدم التناقض والعلية، وإن الواحد إذا أضيف عليه واحد يساويان اثنين، فكلها لا تحتاج إلى إقامة برهان في إثباتها.

---

(١) فلسفتنا، ص ١٦٢.

الثاني: إن هذه المعرفة ليس مصدرها (التجربة) كما عليه المذهب التجريبي، فإن التجربة عاجزة من أن تعطينا اليقين العقلي كما في المبادئ المذكورة، حيث أن القضية التجريبية التي يعتبرها التجريبي المبدأ المولد للمعرفة، ليس إلا مستدلاً نفسه من قضايا جزئية، وقد تقدم الكلام عنه[١].

وقد خرج سيدنا الأستاذ ﷺ بعد بيانه لهذا الخط بثلاثة أمور نوجزها فيما يلي:

الأول: (إن المبادئ العقلية الضرورية هي الأساس العام لجميع الحقائق العلمية، كما سبق في الجزء الأول من المسألة)[٢].

الثاني: (إن قيمة النظريات والنتائج العلمية في المجالات التجريبية موقوفة على مدى دقتها في تطبيق تلك

---

(١) يراجع ص ٤٩ من هذا الكتاب.

(٢) فلسفتنا، ص ١٦٤، وص ٢٠٧ الطبعة الثالثة، دار التعارف ١٤٣٠هـ.

المبادئ الضرورية...)[١] فقيمة كل نظرية علمية أو تجريبية ترتبط إلى حد كبير بتطبيق تلك الأسس والمبادئ العقلية الأولية، وما لم تكن كذلك سوف لا تنتج القطع واليقين.

الثالث: في مسائل الميتافيزيقيا تعتمد النظرية الفلسفية في هذا المجال على تطبيق المبادئ العقلية الأولية، بعيداً عن المجالات التجريبية كما في إثبات العلة الأولى، فلا بد للعقل في هذه المسألة من أن يقوم بتطبيق مبادئه الضرورية، حتى يصل بموجبها إلى نتيجة محددة سلباً أو إيجاباً. (... فالتطبيق يحصل بعملية تفكير واستنباط عقلي بحت بصورة مستقلة عن التجربة)[٢].

الخط الثالث: وفي هذا الخط تكون الدراسة فيه على أساس الفرق الجوهري بين موضوعية الفكر، وموضوعية الشيء في العالم الخارجي، قال أستاذنا الشهيد الصدر ﵀ في الحديث عن الصورة الذهنية : (أن

(١-٢) فلسفتنا، ص ١٦٤، وص ٢٠٨ الطبعة الثالثة ١٤٣٠هـ .

الصورة الذهنية التي تكونها عن واقع موضوعي معين، فيها ناحيتان: فهي من ناحية صورة الشيء ووجوده الخاص في ذهننا، ولا بد لأجل ذلك أن يكون فيها الشيء متمثلاً فيها، وإلاّ لم تكن صورة له، ولكنها من ناحية أخرى تختلف عن الواقع الموضوعي اختلافاً أساسياً، لأنها لا تملك الخصائص التي يتمتع بها الواقع الموضوعي لذلك الشيء، ولا تتوفر فيها ما يوجد في ذلك الواقع من ألوان الفعالية والنشاط، فالصورة الذهنية التي نكونها عن المادة أو الشمس أو الحرارة مهما كانت دقيقة ومفصلة لا يمكن أن تقوم بنفس الأدوار الفعالة التي يقوم الواقع الموضوعي لتلك الصورة الذهنية في الخارج)[1].

على ضوء هذا الخط نفهم أمرين:

الأول: أن المدرسة الإسلامية تؤمن بواقعية المتصوَّر في الذهن، وأن الصورة الصحيحة الماثلة لدى الذهن إنما هي مرآة تعكس ذلك المتصوَّر في العالمَ الخارجي، وبهذا

---

(١) فلسفتنا، ص ١٦٦.

تكون قد ردت على المدرسة المثالية التي لا تؤمن بواقع خارجي، وإنما هي وجود في الذهن ليس إلا !

الثاني: التأكيد على وجود الفارق بين (الماهية، والوجود) (الصورة الذهنية عن الشيء، والواقع الخارجي) فإنه بالرغم من الاتصال الوثيق بين الصورة الماثلة لدى الذهن، والشيء الخارجي المتصور، إلا أنه لا توجد سنخية من جميع الجهات، لأن الصورة بالرغم من أنها تحكي الواقع الموضوعي، إلا أنها لا تحكي جميع فعالياته، ولا تقوم بنفس أدواره، وهذا واضح، فإن من يستحضر في ذهنه صورة الشمس لا تقوم هذه الصورة في ذهنه بنفس أدوار الشمس التي نلمس قسطاً ضئيلاً منها في كل يوم.

وإذا ما تطابقت الصورة الدقيقة الحاضرة لدى الذهن مع الواقع المتصوَّر، كان ذلك يعني (التصديق والجزم) بصحة ما تصورناه، وتكون لدينا معرفة عن ذلك الشيء المتصوَّر.

❖ وقفة قصيرة مع الخطوط الثلاثة:

إن السيد الشهيد الصدر ﵀ لم يطرح نظرية (المعرفة) على ضوء المدرسة الإسلامية بشكل مفصل، حيث أن المدرسة الإسلامية قد اتضح موقفها من نظرية (المعرفة) على صراعها الدائب مع بقية المذاهب الوضعية في نقاشها لنظرية المعرفة، ولهذا لم يذكر ﵀ إلا الخطوط العامة لنظرية (المعرفة) في الفلسفة الإسلامية، وقد أشار فيها على قيمة المعرفة، وأسسها، وطبيعة العلاقة بين الوجود والماهية.

فالخط الأول: بعد أن فسر الإدراك البشري: بالتصور الذهني، المتعلق بالوجود الذهني، والتصديق المنبثق من الماهية والوجود الخارجي، حدد بعد هذا موقف المدرسة الإسلامية ونظرتها من التصور والتصديق، فسلبت كل قيمة للأول (التصور) فيما يعود لجهة موضوعية نصاً وإثباتاً، بينما جعلت للثاني

(التصديق) قيمة موضوعية فيه يحصل الإثبات والنفي للشيء في العالم الخارجي.

والخط الثاني: قد بين فيه موقف المدرسة الإسلامية من ماهية الخيوط الأولية للمعارف التصديقية، وأنها ذات قيمة عالية، وبهذا تكون (المدرسة الإسلامية) قد أعلنت موقفها من المذاهب الوضعية التي كانت تسند المعارف التصديقية إلى أمور مادية غير عقلية كالتجربة، والاستقراء، وغيرهما من الأمور التي لا تخضع لحكم العقل مباشرة.

وهكذا في **الخط الثالث:** حدد فيه موقف النظرية الإسلامية من الوجود في عالم (الذهن) والماهية (في عالم الخارج) من أنه لا سنخية بينهما في جميع الجهات، لوجود فروق جوهرية في البين.

(٢)

مصدر (التصديق)

في المذهب التجريبي



تمهيد

كانت أبحاثنا السالفة ولا تزال تدور حول مصدر التصديق والجزم العلمي الذي يحرزه الإنسان في تفكيره.

وبعبارة أوضح أقول: ما هي الخيوط الأولية والمنابع الصافية التي منها تنسج وتتغذى المعرفة البشرية، وعليها يُقام صرح العلم ويُشاد أساسه ؟

وذكرنا فيما سبق بما لا مزيد عليه أن الجواب على هذا السؤال قد انبرت على تحقيقه في ميدان الإثبات مذاهب فلسفية عديدة منها وأهمها:

١- المذهب العقلي:

وهو الذي يتربع على عرش الفلسفة (الميتافيزيقية) التي تؤمن بما وراء الطبيعة والمحسوس.

وقد درسناه بإسهاب في بدايات القسم الثاني تحت عنوان:

أ - مصدر (التصديق) في المدرسة الأرسطية.

ب- مصدر (التصديق) في المدرسة الإسلامية.

٢- المذهب التجريبي:

وهذا المذهب يتلخص في قوله: (بأن التجربة هي المصدر الأول لجميع المعارف البشرية)[١].

وأنت كما ترى قد أسند معلومات الإنسان ومعارفه اليقينية إلى التجربة بالتحديد، فهي الأم والرحم الذي تتولد منه العلوم، والمعارف التصديقية.

وقد استدل على مدعاه (إلى أن الإنسان حين يكون مجرداً عن التجارب بمختلف ألوانها لا يعرف أية حقيقة من الحقائق مهما كانت واضحة، ولذا يولد الإنسان خالياً من كل معرفة فطرية...)[٢].

---

(١) فلسفتنا، ص ١١٦، الطبعة الثالثة ١٤٣٠هـ.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١١٦.

وبهذا قد نسف المعرفة العقلية القبلية، فلا يؤمن بمعرفة منشؤها العقل قبل التجربة، وليس من أمور ضرورية عقلية إلا تحت قبة التجربة. فالمقياس والميزان في صحة الأحكام على الأشياء سلباً أو إيجاباً هي التجربة ليس إلا، وحكم العقل إنما هو في مرحلة ثانية بعد التجربة، فهو ضيف قد نزل بساحتها ليس له حكم القضاء، والقول الفصل الذي ليس بالهزل لها فوقه بمرقاة.

وبهذا الموقف للمذهب التجريبي يقول الأستاذ الإمام الصدر ﷾: (ينشأ من ذلك:

أولاً: تحديد طاقة الفكر البشري بحدود الميدان التجريبي، ويصبح من العبث كل بحث ميتافيزيقي أو دراسة لمسائل ما وراء الطبيعة، على عكس المذهب العقلي تماماً)[1].

وثانياً: انطلاق السير الفكري للذهن البشري بصورة معاكسة لما يعتقده المذهب العقلي، فبينما كان المذهب العقلي يؤمن بأن الفكر يسير – دائماً – من العام إلى الخاص،

---

(١) فلسفتنا، ص ١١٧، الطبعة الثالثة.

يُقر التجريبيون أنه يسير من الخاص إلى العام، ومن حــدود التجربة الضيقة إلى القوانين والقواعد الكلية...)[١].

إنه كما قرر أستاذنا ﵀ أن المذهب المذكور بإقرار سيادة التجربة في تمويل وضع المعرفة البشرية لدى الإنسان تكون النتيجة من هذا ما يلي:

أ - أن الفكر البشري أصبح مديناً للتجربة وسجين مملكتها، ولا يقدر الفرار من سلطانها، وليس بمقدور فكر الإنسان أن يحلق إلى ما وراء الطبيعة ويحل ضيفاً بساحة (الميتافيزيقيا) بجناح العقل.

وهذا بخلاف ما عليه المذهب العقلي الذي فتح الآفاق أمام سلطان العقل في أن يدق بجحافله المؤزرة أبواب وقلاع ما وراء الطبيعة و (الميتافيزيقيا)، ويستعين بالتجربة في بعض أحكامه، ولا يرفضها، لأن التجارب علم مستأنف كما قال الإمام علي ﵇.

---

(١) فلسفتنا، ص ١١٧، الطبعة الثالثة.

ب - أن طريقة سير الفكر البشري في حصول التصديق واليقين لديه عند المذهب التجريبي، ينطلق فيه بداية من الجزئيات في تجاربه إلى الكليات في أحكامه، فهو أي المذهب هذا في تحقق الأحكام الكلية لديه يكون صاعداً من الجزئيات، وهذا بخلاف المذهب العقلي في أحكامه وحصول اليقين والمعرفة يكون نازلاً من الكليات إلى الجزئيات.

وخذ مثلاً على ذلك أن التجريبيين حينما يقولون: (كل حديدة تتمدد بالنار) فهذا الحكم الكلي إنما جاء عقيب الانطلاق من تجربة جزئيات الحديد هنا وهناك على عدد محدود، أصدروا هذا الحكم العام.

وهذا بخلاف الحكم العام عند المذهب العقلي القائل: (كل إنسان ذو عقل، ومحمد إنسان، فإذاً محمد ذو عقل)، وهنا كانت الانطلاقة في الحكم على الجزء من الكل، إذ أن محمداً هو جزء الإنسان، وقد أصدرنا حكمنا عليه بأنه ذو عقل بعد حكمنا على الكلي وهو الإنسان بأنه ذو عقل.

ولكن المذهب التجريبي رفض مثل هذا الاستدلال النازل من الكل إلى الجزء، وقالوا بأنه لم يضيف في المؤخرة ما لم يكن في المقدمة، وهذا ما لم نجده في قولنا: (كل إنسان ذو عقل ومحمد إنسان فمحمد ذو عقل).

ومن المعلوم يقيناً أن محمداً فرد من أفراد الناس، وقد أصدرنا حكمنا على كل أفراد الناس بأنهم ذو عقل، ومحمد هو منهم، فلا حاجة أن نخصه بحكم العام إذ هو داخل فيه، فلم نضف شيئاً جديداً عليه.

وبعد هذا العرض الموجز لفكرة المذهب التجريبي ردّه أنصار المذهب العقلي من فلاسفة الفكر، ومنهم الأستاذ الإمام الصدر ﵀ الذي لم يفلت المذهب التجريبي في مبادئه من قبضة سلطانه، فقد أخضعه للمثول أمام منصة قضائه العَدْل والقول الفَصْل الذي لا يجور.

وقد رفضه بعد محاسبته بما يلي: (الأول: إن نفس هذه القاعدة: (التجربة هي المقياس الأساس لتمييز الحقيقة) هل هي معرفة حصل عليها الإنسان من دون تجربة سابقة ؟ أو

أنها بدورها - أيضاً - كسائر المعارف البشرية ليست فطرية ولا ضرورية ؟)[1].

وهذه القاعدة من المقولة تدور بين أحد هذين الأمرين لا ثالث لهما، فإما أن تكون سابقة على التجربة هذه (التجربة هي المقياس الأساس لتمييز الحقيقة) وبها يبطل المذهب التجريبي حيث ثبت حسب الفرض أن هناك معارف أولية لدى الفكر البشري قبل التجربة، ومنها هذا المقياس.

وأما أن يكون مقياس المذهب التجريبي هذا (التجربة هي المقياس..) غير سابق التجربة وليس هناك معارف أولية قبل التجربة، وهذا المقياس يحتاج على التجربة أولاً، فكيف عرفنا أنه صادق ؟ فلا ضمان في صدق هذه المقولة وهذه القاعدة للتجريبيين (التجربة هي المقياس لتمييز الحقيقة) باطلة والإلزام منها الدور أي أنها تثبت نفسها بنفسها، وهو مستحيل منطقياً لأنها تدلل على وجودها قبل وجودها.

وإذا انهارت هذه القاعدة والركيزة الأولى للمذهب سقط عرشه وتهاوت أركانه، وبقي عرش المذهب العقلي شامخاً وهو المطلوب.

---

(١) فلسفتنا، ص ١١٧.

(الثاني: أن المفهوم الفلسفي الذي يرتكز على المذهب التجريبي يعجز عن إثبات المادة...)[١].

وهذا أمر واضح لا مراء فيه، لأن جوهر المادة الذي يختفي وراء لون الوردة ورائحتها العطرة ونعومتها الحريرية لا يمكن أن يخضع للحس والتجربة، وإنما الذي يقع تحت التجربة والحس ظواهر المادة، وجوهرها يدرك بالبراهين العقلية مثل مبدأ العلية لا بالتجربة (..ولأجل ذلك أنكر عدة من الفلاسفة الحسيين وجود المادة..)[٢]، لعجزهم عن إدراك حقيقة وجوهر المادة، ومَن يفكر هذا لا يرد عليه الإشكال الثاني.

السبب الثالث الذي حدى بالسيد الأستاذ الإمام الصدر ﵀ رفض المذهب التجريبي هو: (أن الفكر البشري لو كان خاضعاً للتجربة، وأنه يستقي علمه ويقينه عنها وحدها، وأنه لا توجد معارف قبل التجربة (لما أتيح له أن يحكم باستحالة شيء من الأشياء مطلقاً)[٣].

---

(١) فلسفتنا، ص ١١٨، الطبعة الثالثة.

(٢) نفس المصدر، ص ١١٩.

(٣) نفس المصدر، ص ١١٩.

وكما تعلم أن التجربة لا شأن لها بإصدار هذا الحكم (الاستحالة) نعم يمكن لنا من خلالها نجزم بعدم وجود الشيء، ولكن لا يعني هذا استحالة عدم وجوده، والفارق كبير، فعدم وجود بشر أو حيوان على سطح القمر نتيجة التجارب والكشوف، لا يعني هذا مجال استحالة وجود كائن في سطح القمر يوماً ما، وهذا يختلف ذاتياً بأن المثلث له أربعة أضلاع، وأن الجزء أكبر من الكل، وأن القمر موجود حال انعدامه، فإن هذه الأمور غير موجودة فعلاً، ومستحيلة الوجود، فلا يوجد جزء أكبر من الكل، ولا مثلث له أربعة أضلاع، ويستحيل أن يكون القمر موجوداً ومعدوماً في لحظته.

ففي هذه الطائفة (لم تقع ولكنها جائزة ذاتياً - أن يصطدم القمر بالأرض، وأن يوجد كائن على سطح القمر - وأما الطائفة الثانية - من أن المثلث له أربعة أضلاع، وأن القمر موجود لحظة انعدامه، وأن الأبيض هو أسود لحظة بياضه - فهي ليست معدومة فحسب، بل لا يمكن أن توجد مطلقاً، فالمثلث لا يمكن أن يكون له أضلاع أربعة سواء اصطدم القمر بالأرض أم لا.

وهذا الحكم بالاستحالة لا يمكن تفسيره إلا على ضوء المذهب العقلي بأن يكون من المعارف العقلية المستقلة عن التجربة)[١].

وخلاصة القول وزبدته أن المذهب التجريبي إما أن يؤمن بمفهوم الاستحالة، أو لا يؤمن، ولا ثالث غيرهما:

أ - فإن آمن بمفهوم الاستحالة كان هذا (مستنداً إلى معرفة عقلية مستقلة لا إلى التجربة)[٢].

ب - وإن أنكر المذهب التجريبي هذا المفهوم (ولم يقروا باستحالة شيء مهما كان غريباً لدى العقل)[٣]، فمعنى هذا أن لا تناقض ولا استحالة أن يكون الشيء موجود ومعدوم في لحظته (وصدق القضية وكذبها في لحظة واحدة، وجواز التناقض يؤدي إلى انهيار جميع المعارف والعلوم، وعدم تمكن التجربة من إزاحة الشك والتردد في أي مجال من المجالات العلمية، لأن الأدلة مهما تضافرت على صدق

---

(١) فلسفتنا، ص ١٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٠.

قضية علمية معينة كقضية - الذهب عنصر بسيط - فلا يمكننا أن نجزم أنها ليست كاذبة ما دام من الممكن أن تناقض الأشياء وتصدق القضايا وتكذب في وقت معاً)[١].

وعليه يحصل الاضطراب في العلوم وعدم الثقة بصدقها لأننا رفضنا جميع الموازين من قبول التناقض والصدق والكذب في أي شيء في لحظة واحدة، وهذا مما لا يمكن قبوله لدى المذهب العقلي.

(الرابع: أن مبدأ العلية لا يمكن إثباته عن طريق المذهب التجريبي)[٢].

فلا تعطينا التجربة صفة الجزم واليقين بفكرة مبدأ العلة فإن (المذهب التجريبي يعجز عن البرهنة عليها بصفتها مبدأ وفكرة تصديقية)[٣].

وإذا كان المذهب هذا عاجزاً في تجاربه من أن يضع بين أيدينا على نحو الجزم مبدأ العلية وتأثير الربط بين

---

(١) فلسفتنا، ص ١٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢١.

الحرارة درجة مئة مثلاً وبين الغليان، وصفة التجمد إذا بلغت برودته تحت الصفر، وإنما التجربة تعطينا صفة التعاقب بين الغليان بعد الحرارة بدرجة معينة، والتجمد عقيب بلوغه البرودة تحت الصفر، فلا يتاح للتجربة ذلك لأن (سببية إحدى الظاهرتين للأخرى والضرورة القائمة بينهما فهي مما لا تكشفها وسائل التجربة مهما كانت دقيقة ومهما كررنا استعمالها، وإذا انهار مبدأ العلية انهارت جميع العلوم الطبيعية...) [١]، وذلك لضرورة هذا المبدأ في دنيا العلوم بل في دنيا الكون، إذ ما من شيء إلاّ وله سبب في وجوده سوى الذات المقدسة التي هي غنية عن كل سبب، بل هي تعطي الأشياء عِللها. (وقد اعترف بعض التجريبيين كـ (ديفيد هيوم) و(جون ستيوارت ميل) بهذه الحقيقة) [٢]، وهي حقيقة وضرورة العلية في الأشياء.

وفي المذهب التجريبي عدة اتجاهات وآراء من علماء ومدارس تؤكد على التجربة في منبع المعرفة والفكر البشري منها:

---

(١) فلسفتنا، ص ١٢١، الطبعة الثالثة.
(٢) نفس المصدر، ص ١٢١.

١- لوك :

وهو على رأس القائلين بالمذهب التجريبي، وقد رد جميع المعارف البشرية إلى التجربة، وهي عنده على نوعين:

النوع الأول: (تجربة ظاهرة تقوم على أساس المحسوسات الخارجية التي نعايشها).

النوع الثاني: تجربة باطنة وهذه مستمدة من أحوال النفس، والعقل إنما يولد صفحة بيضاء تنتقش عليها المعاني المستفادة من التجارب الخارجية، فالإحساس الخارجي هو الذي يمد العقل بصور المحسوسات التي تكون موضوعاً لعمليات الفكر من خيال وتذكر...) [(١)].

٢- هيــوم :

فإنه أرجع جميع المعارف ومنها العقلية (كالعلة والمعلول) إلى الإحساس، وقال إن هذين ليسا فطريين عند الإنسان، وإنما هما وليدان للعادة المستمرة من وقوع حادثين

---

(١) الفلسفة ومباحثها، لمؤلفه محمد علي أبو ريان، ص ٣١١.

متتاليين، فإنا إذا رأينا أحدهما وقع عقيب الآخر بشكل متكرر نجعل المتقدم علة لوجود المتأخر.

ومن هنا يكون مبدأ العلية عند (هيوم) منتزع من الإحساس والمشاهدة، ولا معرفة قبلية عقلية قبل ذلك.

ولكن الإمام الصدر ﷺ قد رد هذا الزعم بردود واسعة ضمن تفريعات متعددة لا تسعها هذه الوريقات في هذه العجالة[١].

فقال ﷺ:

(وليس من شك في أن هذا التفسير للضرورة القائمة بين العلة والمعلول ليس صحيحاً)[٢].

فلا نحتاج في معرفة الربط بين العلة والمعلول حدوث حالات متكررة دوماً (... فإن العالم الطبيعي يستطيع أن يستنتج علاقة عِليّة وضرورة بين شيئين يقعان في حادثة واحدة...)[٣].

---

(١) فلسفتنا، ص ١٢١، الطبعة الثالثة.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

٣- هوبن :

وهو من دعاة المذهب الحسي، ويرجع (الوجود) إلى المادة والحركة، وإن غير المحسوس لا وجود له.

وعرف الإحساس بأنه (حركة في الجسم الحاس تحدث بتأثير حركة أخرى صادرة عن الجسم المحسوس)[١].

وقد ذهب شوطاً بعيداً في تطرفه حتى قال عن المبادئ الأولية والعقل باللغة، وإنما هي (ألفاظ جوفاء لا واقع ورائها)[٢].

وبهذا الإنكار للعقل وما ينتج عنه من مبادئ أولية كعدم التناقض، والعلة والمعلول في أن لكل شيء سبب مثلاً، والكل أكبر من الجزء التي هي من المسلمات والبديهيات الأولية، قد تجنى على جميع العلوم والمذاهب بما في ذلك المذهب والعلم التجريبي فإنه لم تبقى له قيمة في نظر (هوبن) نفسه.

---

(١) الفلسفة ومباحثها، ص ٣٣٩، محمد علي أبو ريان.

(٢) المصدر السابق نفسه.

وذلك أن مبدأ عدم التناقض من المبادئ الأولية العقلية وقد ألغاه واعتبره من الألفاظ الجوفاء، وبإلغائه يلغى المذهب التجريبي لأنه في كل قضية بعد التجربة المتكررة قابل للصدق والكذب في لحظة تلك القضية حيث أنه ألغى مبدأ عدم الصدق والكذب في موضوع واحد في وقت واحد، فقولنا بعد التجربة على مجموعة من قطع الحديد بتمددها بالحرارة (كل حديدة تتمدد بالنار) يجوّز (هوبن) أن تكون كاذبة وصادقة في وقت واحد، وهذا يعني القضاء المبرم على المذهب التجريبي وغيره من المعلوم !

٤- ماوتسي تونغ[١]:

وهذا كغيره من التجريبيين، يقول أن مصدر المعرفة البشرية هي (التجارب الحسية، وأما المعرفة الفعلية فتتكون من ثلاثة عناصر:

الأول: معرفة الحواس وهي الاستعداد للإدراك ولكن هذا الاستعداد لا ينتقل من القوة إلى الفعل إلا عند وجود المحَسْ الذي يتجاوب مع كل حاسة.

---

(١) هذا الفيلسوف هو من فلاسفة الشرق، عاش ما بين ٤٠٠ و ٥٠٠ م، راجع فلاسفة من الشرق، ص ٢٨١.

الثاني: الإدراك المباشر، وهو نتيجة تجاوب الحواس مع المحَسات.

الثالث: إدراك المعاني المكوَّنة من الأصوات المسموعة بحاسة السمع وترتيب بعضها على بعض[١].

٥- مدرسة (الفسيشيكا):

وهذه المدرسة تقوم من جهة فلسفية فكرتها على أمرين:

الأول: الجانب المادي للكون وأنه قائم ومكون من ذرات غير متكافئة، وغير متماثلة كماً وكيفاً.

الثاني: المعرفة ومصدرها إنما هي التجربة القائمة على الجزء ولا تعترف هذه بالكلِيات المستفادة من الأجزاء في تجاربها) [٢].

وهذا بخلاف ما عليه المذهب التجريبي المعاكس للمذهب العقلي، فإنه في أحكامه يكون صاعداً من الجزئيات المجربة إلى الكليات، فيقول بعد تجاربه (كل حديد يتمدد بالنار).

---

(١) نفس المصدر السابق، ص ١٦٧-١٦٨ بتصرف.

(٢) نفس المصدر السابق.

ولعل السر في إلغاء هذه المدرسة هذا الانتقال من الجزئيات إلى الكليات، والجمود على نتيجة كل جزء على حده، هو خلاصها من المبادئ العقلية الأولية مثل عدم التناقض، ومبدأ العلية.

ولكن الحقيقة أنها غير قادرة على الخلاص من المبادئ الأولية العقلية إذ بدونها يمكن أن تكون كل قضية جزئية صادقة وكاذبة في آن واحد بإلغاء مبدأ عدم التناقض، فلا مانع من الصدق والكذب في التجربة الجزئية، وهذه لا تكون مؤهلة لمعرفة الفكر البشري وينبوعه السليم!.

٦- مدرسة (النيايا)[١]:

وهذه المدرسة كسابقتها، إلا أنها تخالفها في الأول في مادية الكون، وتوافقها في الثاني، وهو أن مصدر المعرفة البشرية التجربة.

---

(١) وهي مدرسة أنشأها رجل يُدعى (حوتاما) في القرن الثاني أو الثالث بعد المسيح. راجع فلاسفة من الشرق، ص ١٧٠.

٧- الرّواقيون:

وهم من أصل غير يوناني، ولم يكونوا أثينيين (فزينون) مؤسس الرواقية من أصل فينيقي، و(كريزينوس) ثاني مؤسسيها من صقلية[١].

وخلاصة مذهبهم في المعرفة ومصدرها هي أمور حسية لأن الذهن كالصفحة البيضاء تأتيها الانطباعات الحسية من الخارج فتنتقش فيها كالختم على الشمع، فتحدث التصورات أو التمثلات، غير أن العقل والإرادة يسرعان إلى التصور فيحكمان عليه، ويسمى حكماً أو تصديقاً...[٢].

هذه خلاصة آراء مدارس وعلماء المذهب التجريبي الذي ثبت عدم ثباته أمام عاصفة النقد الفلسفي العقلي الرصين، ولا يفوتني هنا في المذهب ذاته رأيان للحصول على المعرفة التجريبية:

---

(١) المنهاج الجديد في الفلسفة العربية، ص ٥٨.

(٢) فلاسفة من الشرق والغرب، ص ٣٢٠، والفلسفة عند اليونان، ص ٤٠٠.

الماركسية والتجربة:

وهنا في المعرفة التجريبية رأيان:

الرأي الأول: (بأن المعرفة كلها تتوفر في المرحلة الأولى، أي مرحلة الاحساسات والتجارب البسيطة) [١].

الرأي الثاني: (القائل بأن للمعرفة خطوتين: الخطوة الحسية، والخطوة العقلية، أو التطبيق والنظرية، أو مرحلة التجربة ومرحلة المفهوم والاستنتاج، فنقطة الانطلاق للمعرفة هي:

الحس والتجربة، والدرجة العالمية لها هي: تكوين مفهوم علمي ونظرية تعكس الواقع التجريبي بعمق ودقة) [٢].

وهذا الرأي هو للماركسية في منبع المعرفة ومصدرها.

وفي الحقيقة هي جمعت بين التجربة ومواهب العقل في تكوين المعرفة وخيوطها الأولية.

---

(١) فلسفتنا، ص ١٣٠، الطبعة الثالثة.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٠.

ولكنها حينما خشيت من النزوع إلى المذهب العقلي سريعاً ما تراجعت لصالح المذهب التجريبي واحتفظت بمقامه الرفيع، فاضطرت على هذا القول: (... على أساس وحدة النظرية والتطبيق، وعدم إمكان فصل أحدهما عن الآخر، وبذلك احتفظت للتجربة بمقامها في المذهب التجريبي، واعتبارها المقياس العام للمعارف البشرية)[١].

وقد استشهد الإمام الصدر ﵀ على كلامه الآنف بقول: (ماوتسي تونغ)[٢].

وبعد هذا كله لا ينكر الإمام الصدر ﵀ دور التطبيق والتجربة العلمية إن لهما أثر بالغ في إثراء الفكر البشري، إلا أنه لا يمكن بحال أن نبعد المبادئ الأولية العقلية مثل مبدأ عدم التناقض ومبدأ العلية.

قال ﵀: (ولسنا نعني بهذا أن التطبيق والتجربة العلمية ليس لهما دور مهم في المعرفة البشرية للطبيعة

---

(١) فلسفتنا، ص ١٣١.

(٢) راجع فلسفتنا من ص ١٣١-١٣٤.

وقوانينها، فإن دورهما في ذلك لا شك فيه، وإنما نريد أن نؤكد على أن استبعاد كل معرفة منفصلة عن التجربة ورفض المعارف الأولية العقلية بصورة عامة يكون سبباً لاستحالة تخطي المرحلة الأولى من الإدراك أي: مرحلة الحس والتجربة)[١].

وعليه فلا مناص من الأخذ بالمذهب العقلي وعدم تخطيه بالاكتفاء بالتجربة وحدها وفصل ما عداها.

ومرة أخرى ينعي الإمام الصدر ﷺ مسائل الفلسفة والميتافيزيقيا التي كانت حاضنة ما وراء الطبيعة، بل ومسائل الرياضيات وشتى العلوم، إذ كانت المرجع في حل معضلات العلوم وحل أسرارها بالرجوع إليها.

ولكن بعد انبثاق فجر التجربة وتسلل خيوطه الفضية إلى حقول العلوم بجدارة وكفاءة، راق لكثير من العلماء استبدال الفلسفة الأم الأصيلة بالتجربة الأم الرضاعية التي تغني في بعض الجوانب ولكن ليس على الإطلاق، فقال ﷺ :

---

(١) فلسفتنا، ص ١٣٤.

(وقد واجه الكيان الفلسفي هذه المحنة أو هذا الامتحان منذ نشأت الطريقة التجريبية وغزت الحقول العلمية بكفاءة ونشاط)[1].

فليس التناقض في بعض وجوهه بين التجربة في مذهبها والمذهب العقلي مقتصرة خطورته على نظرية المعرفة فحسب، بل تتعداه إلى روح الكيان الفلسفي وصرحه العام كما ذكرنا آنفاً.

وفي ختام بحث المذهب التجريبي أقول: ليس لدى أصحاب الفلسفة العقلية (الميتافيزيقيا) أي حساسية لدى المذاهب الأخرى بما فيها المذهب التجريبي، إن التزمت بالقواعد والمبادئ البديهية العقلية.

وها أنا في الختام حتى يكون **﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾**[2].

أذكر ما قاله أستاذي الإمام الصدر ﷺ بهذا الصدد:

---

(١) فلسفتنا، ص ١٣٥.

(٢) سورة المطففين، الآية: ٢٦.

(ومرة أخرى نؤكد أننا لا ننكر على التجربة فضلها العظيم على الإنسانية، ومدى خدمتها في ميادين العلم، وإنما نريد أن يفهم هؤلاء التجريبيون: أن التجربة ليست هي المقياس الأول والمنبع الأساسي للأفكار والمعارف الإنسانية.

بل المقياس الأول والمنبع الأساسي هو: المعلومات الأولية العقلية التي تكتسب على ضوئها جميع المعلومات والحقائق الأخرى حتى إن التجربة بذاتها محتاجة إلى ذلك المقياس العقلي، فنحن والآخرون على حد سواء في ضرورة الاعتراف بذلك المقياس الذي ترتكز عليه أسس فلسفتنا الإلهية، وإذا حاول التجريبيون بعد ذلك أن ينكروا ذلك المقياس ليبطلوا علينا فلسفتنا، فهم ينسفون بذلك الأسس التي تقوم عليها العلوم الطبيعية، ولا تتمرد بدونها التجارب الحسية شيئاً)[١].

نعم وبكل تأكيد إن في الإفراط التجريبي إلى حد نَسْف المقياس العقلي ومبادئه الأولية هو نسف لصدق

---

(١) فلسفتنا، ص ١٢٦.

المذهب التجريبي في كل تجربة جزئية أو كلية، إذ هي حسب الفرض بإلغاء المقياس العقلي وإسقاط مبدأ عدم التناقض العقلي، قابلة للصدق والكذب في لحظة واحدة، فتسقط التجربة حتى في جزئيتها المحدودة من ساحة الصدق، فلا قيمة عندها للتجربة.

وبهذه الدراسة قد أتينا على نهاية القسم الثاني حول نظرية المعرفة بشقيها (التصور) و (التصديق) في الفلسفة، وإلى القسم الثالث حول قيمة المعرفة في المذاهب الفلسفية.

والحمد لله تعالى أولاً وآخراً على كل حال.

وعلى إنجاز بحث المذهب (التجريبي).

العبد الطامع في رحمة ربه وعفوه

حسن الراضي الأحسائي

دمشق الشام ١٤٣١/١١/٧هـ

الموافق ٢٠١٠/١٠/١٤م

القسم الثالث

المذاهب الفلسفية وقيمة المعرفة

نكر الشهيد الصدر ﷺ أن المذهب (المثالي) في عالم الفلسفة له مفهومان يختلف الثاني عن الأول كل الاختلاف:

❖ المثالية في المفهوم الأول:

فالمثالية في المفهوم الأول هي التي بشر بها (أفلاطون) والتي كان يُعبر عنها (بالمُثُل الأفلاطونية) ولكن مثاليته لم تعني إنكار الواقع الموضوعي، بل على العكس من ذلك كان يؤمن بالواقع الموضوعي إيماناً يبلغ به حد الإفراط، حيث أنه لم يقف إيمانه بالواقع الموضوعي في حدود متعلق الإحساسات، بل اندراج يعطي صفة الموضوعية لمتعلق الإدراكات العقلية، وما يعبر عنها بالأنواع من قبيل إدراكنا العقلي للماء والشجر والحيوان وغيرها من الأنواع، فإنها كلها ذات حقائق موضوعية خارج التعقل، ولكن لا في هذا العالم وإنما

في عالم (المُثُل)، وهذه المثالية قد بلغت حد الإسراف في الإيمان بالواقع الموضوعي كما عبر بذلك أستاذنا الشهيد ﭬ، وقد درسناها وأشبعناها بحثاً آنفاً.

❖ المثالية في المفهوم الثاني:

وقد جاءت (المثالية) في ثوب جديد بمفهوم آخر يغاير المفهوم القديم، بينما كانت الأولى تثبت الواقع الموضوعي لكل من الإدراكات العقلية، والحسية، كانت هذه الأخيرة تنكر ذلك أشد الإنكار ولا تؤمن بأي شكل من أشكال الواقع الموضوعي، وأن ليس لنظرية المعرفة الإنسانية أية قيمة فلسفية.

١- باركلّي:

جاءت هذه المثالية على يد (باركلي) وكانت فلسفته المثالية هذه هي نقطة الانطلاق للمثالية الجديدة.

ما هو الواقع الموضوعي عند (باركلي) ؟

يجيب (باركلي) على هذا السؤال وبه يبين جوهر مثاليته بقوله: (أن يوجد هو: أن يُدرِك أو أن يُدرَك) فهو يؤمن بشيء واحد وهو إما أن يكون مُدرِك (وهو النفس) أو يكون مُدرَك (هي التصورات والمعاني القائمة في مجال الحس والإدراك)، فإيمانه بالواقع الموضوعي إنما هو في حدود ما ذكر فقط، وحتى الأجسام التي يسميها الفلاسفة بالجواهر المادية بعيدة عن مسرح الوجود، فكان يقول: (إننا لا ندرك من المادة التي يفترضونها إلا مجموعة من التصورات الذهنية والظواهر الحسية كاللون والطعم والرائحة وما إليها من صفات.

إن (باركلي) لم يكن في رأيه سفسطائياً ولا شكاكاً في وجود العالم وما فيه، وأنه لا فرق بينه والفلاسفة الذين يؤمنون بالعالم، وإنما الفرق بينه وبينهم في فلسفة (الوجود) فهو يؤمن (بالوجود) في حدود إدراكنا ليس إلا، الذي يعني عدم الإيمان بالواقع الموضوعي خارج الذهن.

يجيب (باركلي) على السؤال الذي يطرح عليه وهو أنه إذا لم يكن للمادة أي وجود خارج ذهننا من أين جاءت هذه الإحساسات داخل النفس، وجوابه هو أن الله الذي يبعث فينا جميع الإحساسات داخل النفس.

بهذه الدراسة لمثالية (باركلي) نعرف أنه لا يؤمن على مستوى الوجود إلا بحقيقتين:

الأولى: (العقل) (الذات المدرِكة).

الثانية: (لله والحقيقة الخلاّقة لإحساساتنا).

فهو يؤمن بوجود (النفس) المدرِكة للمعاني في الذهن أولاً. ويؤمن بوجود المعاني المدرَكه في الذهن فقط ثانياً، والله هو الذي ألقى الإحساسات فينا ليس إلاّ.

ما هي الأدلة على مثالية (باركلي)؟

وقد استفاد أستاذنا الشهيد الصدر ﷺ من بيانات (باركلي) الفلسفية أربعة أدلة، ورد كل دليل منها رداً علمياً يدعمه الدليل والبرهان العقلي الذي بأنواره تزول

كل ظلمة قاتمة، وها أنا أذكرها للقارئ الكريم مراعياً الاختصار والإيضاح:

١- **الدليل الأول:** إن الإدراكات البشرية إنما هي منبثقة من (الحس) والحس هذا مليء بالتناقضات، فحاسة البصر مثلاً تعطينا صورة مصغرة عن الشيء البعيد، هذا إذا ما اقتربنا منه أعطتنا صورة كبيرة الحجم أفهل هذا يدل على أن ذلك الشيء صغير وكبير في الوقت نفسه؟

ويضرب (باركلي) مثلاً على التناقضات في داخل الحس الذي يعتبر روح الإدراك البشري، يقول فيه (اغمس يديك في ماء دافئ بعد أن تغمس إحداهما في ماء ساخن والأخرى في ماء بارد، أفلا يبدو الماء بارداً لليد الساخنة، وساخناً لليد الباردة؟ فهل يجب إذن أن نقول عن الماء أنه ساخن وبارد في الوقت نفسه. أوليس هذا هو الكلام الفارغ بعينه؟! فهو ليس سوى اسم نطلقه نحن على إحساسنا، فالماء يوجد فينا نحن...)[1].

---

(١) عن فلسفتنا، ص ١٢١.

لم يكن هذا الدليل مقبولاً عند أستاذنا الشهيد الصدر ﵀ ولهذا رد عليه فقال: (وهذا الدليل لا قيمة له للأسباب الآتية)، ونحن نذكرها مضموناً بالنص للاختصار:

أ - إن (باركلي) أسقط نظرية المعرفة البشرية وأنكرها لأنها تعتمد على (الحس) الذي يعتبره القاعدة لها، وما دام هذا (الحس) متناقضاً في معطياته الخارجية حيث أنه لا يتمكن أن يحكي الواقع الموضوعي كما هو، فإذاً يسقط (الحس) من الاعتبار، وإذا كان كذلك فلا معرفة.

والجواب: أن (المذهب العقلي يقرر وجود معارف أولية ضرورية للعقل البشري، وهذه المعارف الضرورية كعدم التناقض، ومبدأ العلية لم تنشأ من الحس ولا يبدو فيها شيء من التناقضات مطلقاً)[1]. ومن هذه المعارف البعيدة عن الحس، تنبثق المعرفة البشرية.

---

(١) فلسفتنا، ص ١٢٢.

ب- إن هذا الدليل الذي قدمه (باركلي) ينطوي على الأخذ بمبدأ عدم التناقض، الذي هو من المعارف الأولية في المذهب العقلي، و(باركلي) إنما هو ممن يأخذ بالمذهب التجريبي، الذي لا يكون فيه عدم التناقض إلا مبدءاً تجريبياً يُدلل عليه بالتجربة، (فإذا كانت الإدراكات والتجارب متناقضة كيف صح (لباركلي) أن يؤمن بمبدأ عدم التناقض، ويبرهن عن هذا الطريق على عدم وجود واقع موضوعي؟ ولماذا لا يصح عنده وجود واقع موضوعي تتناقض فيه الظواهر والأشياء!...)[١].

جـ- إن أستاذنا الشهيد الصدر ﵀ قد رد دليل (باركلي) المتقدم وذلك أنه لم يفرق بين مسألة وجود الإحساسات والإدراكات الذهنية، ومسألة وجود واقع موضوعي، فليس من الضروري أن تكون الإحساسات الذهنية متحدة مع الواقع الخارجي، ولا تكون التناقضات

---

(١) فلسفتنا، ص ١٢٢.

الذهنية دليلاً على عدم وجود واقع خارجي ، وإنما عدم التكافئ بين الإحساس الذهني والوجود الخارجي، جاء نتيجة الانفعال الذاتي (فلا بد من شيء خارجي حينما نحس وننفعل.. ويمكننا على هذا الأساس أن نحكم فوراً في شأن الماء الذي افترضه (باركلي) بأنه ماء دافئ ليس ساخناً ولا بارداً، وأن هذا الدفء هو الواقع الموضوعي الذي أثار فينا الإحساسين المتناقضين، وقد تناقض الإحساسان بسبب الناحية الذاتية التي نضيفها على الأشياء حين ندركها وننفعل بها)[1].

وعليه فلا تناقض حقيقة.

٢- **الدليل الثاني:** من أدلة (باركلي) (إن الاعتقاد بوجود الأشياء خارج روحنا وتصورنا إنما يقوم على أساس أننا نراها ونلمسها، أي أننا نعتقد بوجودها لأنها تعطينا إحساسات ما، إلا أن إحساساتنا ليست سوى أفكار

---

(١) فلسفتنا، ص ١٢٣.

تحتويها أرواحنا، وإذن فالأشياء التي تدركها حواسنا ليست سوى أفكار، والأفكار لا يمكن أن توجد خارج روحنا)[١].

هذا وقد أجاب أستاذنا الشهيد الصدر ﷺ على هذا الدليل، (بأنه غير صحيح وحتى (باركلي) نفسه لا يعلم به (فإنه يتفق معنا - بصورة غير شعورية - على دحضها (الحجة) وعدم كفايتها لتبرير المفهوم المثالي، ذلك أنها تؤدي إلى مثالية ذاتية تنكر وجود الأشخاص الآخرين كما تنكر وجود الطبيعة على السواء...)[٢].

إذا كان (باركلي) لا يؤمن إلاّ بوجود الشعور والإحساس لأن أفكارنا تحتويها، وما كان خارجاً عن أفكارنا وأرواحنا لا حقيقة له ولا وجود، فإنه سوف يؤدي بشكل طبيعي لإنكار الأشخاص الآخرين، لأن أفكارنا لا تمتد إليها، وإذا كان الأمر هكذا فمع من

(١) فلسفتنا ، ص ١٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٤.

يتحدث (باركلي) ويطرح نظرياته إذا لم يؤمن بوجود الآخرين؟! (... وإلا فمع من كان يتحدث ؟! أو لمن كان يكتب ويؤلف؟! ولحساب من يلقي محاضراته ودروسه؟! أليس ذلك تأكيداً قاطعاً من (باركلي) على الواقع الموضوعي للأشخاص الآخرين؟!)[1].

وبهذا الجواب الوجداني نفهم بطلان الدليل الذي قدمه (باركلي) لدعم مثاليته الخالية من كل برهان، علمي أو دليل عقلي، مكتفين به عن استعراض الجواب الثاني الذي دحض به أستاذنا ﵀ سر المغالطة التي كانت في هذا الدليل.

٣- **الدليل الثالث:** خلاصة ما يريد طرحه (باركلي) في هذا الدليل هو أن الإدراكات والمعارف البشرية، لو كان لها قابلية الوصول إلى ما وراء حدودها وكان هذا الكشف والوصول ذاتياً، لو وجب أن تكون جميع العلوم والنظريات صحيحة وثابتة، والوجدان يكذب

(١) فلسفتنا، ص ١٢٤، وص ١٦٧ ط ثالثة درا التعارف ١٤٣٠هـ.

هذا، فما أن يجمع العلماء على نظريةٍ مّا، حتى يتجلى لهم وبوضوح بطلان ما أجمعوا عليه مسبقاً، وما هذا إلا دليل على أن الإدراكات غير قادرة على الكشف عن الواقع الموضوعي خلاف (ما تزعمه الفلسفة الواقعية من أن العلم يتمتع بالكشف الذاتي؟!)[1] وإذا لم تثبت هذه الفلسفة في ميدان البرهان العقلي والعلمي صحة ما تدعيه للعلم من الكشف الذاتي، فالمثالية هي على حق فيما تدعيه.

أجاب الشهيد الصدر ﵀ على هذا الدليل بما نصه: (ولأجل أن نجيب على هذا الدليل يلزمنا أن نعرف ما هو معنى الكشف الذاتي للعلم؟ إن الكشف الذاتي للعلم معناه أن يرينا متعلقه ثابتاً في الواقع الخارج عن حدود إدراكنا وشعورنا، فعلمنا بأن الشمس طالعة، وأن المثلث غير المربع، يجعلنا نرى طلوع الشمس، ومغايرة المثلث للمربع، ثابتين في واقع مستقل عنا، فهو (أي العلم) يقوم بدور المرآة، وإراءته لنا ذلك هي كشفه الذاتي، وليس

(١) فلسفتنا، ص ١٧٠، ط ثالثة ١٤٣٠هـ.

معنى هذه الإراءة أن طلوع الشمس موجود في الخارج حقاً، وأن مغايرة المثلث للمربع ثابتة في الواقع، فإن كون الشيء ثابتاً في الواقع غير كونه مرئياً كذلك، وبذلك نعرف أن الكشف الذاتي للعلم لا يتخلف عنه حتى في موارد الخطأ والاشتباه...)[١].

وفي البيان الذي فسر فيه السيد الشهيد الصدر ﵀ قول الفلسفة الواقعية من أن العلم يتمتع بالكشف الذاتي وأن المقصود به هو أنه يكشف لنا عن الشيء خارج إدراكنا الذهني، وثبوت الواقع الموضوعي بعيداً عن الحدود الذهني والنفسي، وليس معنى الكشف الذاتي (للعلم) هو مطابقة (العلم) للواقع الموضوعي في الخارج بشكل تلازم العلة والمعلول، فحتى لو تبين عدم ثبوت الواقع الموضوعي في الخارج وخطأ النظرية التي صدقنا بها مثلاً، فإن (العلم) قد كشف كشفاً ذاتياً عن ذلك الشيء وثبوته لنا خارج إدراكنا، وخرجنا بهذا التصديق

(١) فلسفتنا، ص ١٢٨، وص ١٧١ ط ثالثة.

من مرحلة التصور وهو مثول صورة الشيء في ذهننا إلى مرحلة الجزم والحكم، بوجود متعلقها خارج ذهننا، سواءاً كانت حقاً ثابتة في العالم الخارجي أم لا، فإن الحكم والجزم النفسي ثابتان على أي حال.

وبهذا نفهم سر المغالطة التي حاولها (باركلي) لدعم مذهبه المثالي حيث أنه حمّل (الفلسفة الواقعية) ما لا تهدفه من عبارة الكشف الذاتي (للعلم)، وعلى هذا لا يبقى مجال للشك في بطلان دليل (باركلي) هذا ما دمنا عرفنا معنى الكشف الذاتي للعلم).

٤- **الدليل الرابع:** من الأدلة التي قدمها (باركلي) لدعم مثاليته على عدم قيمة المعرفة البشرية إلاّ في حدود الذهن، وهي معرفة إدراكاتنا فقط هو: (أن المعارف التصديقية إذا كانت قد تخطئ ولم يكن كشفها الذاتي يصونها عن ذلك فلماذا لا يجوز أن تكون جميع معارفنا التصديقية خطأ؟! وكيف يمكننا أن نعتمد على الكشف الذاتي للعلم ما دام هذا الكشف صفة لازمة للعلم في موارد الخطأ والصواب على حد سواء)[١].

---

(١) فلسفتنا، ص ١٢٩ ، وص ١٧١ ط ثالثة.

إن هذا الدليل الآخذ به متوقف على صحة الدليل الثالث، وقد تبين لك من خلال الرد الصحيح للسيد الشهيد ﵀ بطلانه، ومع هذا لم يكتف ﵀ بإبطاله للدليل الثالث، بل رد على هذا الدليل بقوله: (ولكن الذي يقضي على هذا الشك هو المذهب العقلي فهو يقرر وجود معارف ضرورية مضمونة الصحة لا يقع فيها الخطأ مطلقاً - كمبدأ عدم التناقض، ومبدأ العلية - وإنما يقع أحياناً في طريقة الاستنتاج منها....)[١].

هذا هو تمام الحديث عن نظرية المعرفة في (المثالية) من الاتجاه الفلسفي لها، معرضين عن الاتجاهين الآخرين (المثالية الفيزيولوجية، والفيزيائية) روماً للاختصار ولبعدها عن موضوع بحثنا[٢].

---

(١) فلسفتنا، ص ١٢٩، للتوسع راجع المصدر المذكور ص ١٣٠.

(٢) راجع في هذا فلسفتنا، ص ١٣١-١٤١.

٢ - جون لوك[١]:

ونظريته في قيمة المعرفة تفهم من إيمانه الكامل بالنظرية (الحسية) التي يرجع فيها أنواع المعرفة إلى (الحس)، ولكن بالرغم من إيمانه هذا حينما جاء لدراسة قيمة المعرفة من زاوية ما تقدمه على مستوى الوصول إلى الواقع، لا من زاوية مصادرها وأسبابها، نراه أعطى (المعرفة) أقساماً ثلاثة:

أ – **المعرفة البديهية:** التي يحصل عليها العقل بدون إعمال نظر وفكر مثل معرفتي بأني موجود.

ب – **المعرفة التأملية:** وهي التي عكس الأولى تحتاج إلى استدلالات مثل معرفتي بأن مجموع زوايا المثلث تساوي قائمتين، بعد البرهنة عليها بأمور رياضية.

---

(١) (وهو الممثل الأساسي للنظرية الحسية والتجريبية) راجع عنه قصة الفلسفة الحديثة ج١ ص ١٣٥، وموسوعة الفلسفة، د. عبد الرحمن بدوي، ص ٣٧٣ ، عن (فلسفتنا) ص ١٥٩ ط ثالثة ١٤٣٠هـ

جـ- **المعرفة** التي يكون منشؤها الحس مثل معرفتي ببياض القرطاس، وحرارة الماء، ونزول المطر، فإن هذه المعرفة بمثل هذه الأمور إنما كانت وليدة - الحس - ليس إلاَّ.

و (لوك) لا يعطي للمعرفة ذات قيمة حقيقية سوى للمعرفة الوجدانية والتأملية ليس إلاَّ، وما عداها من المعرفة الحسية ليس لها هذه الصفة من وجهة نظر فلسفية، نعم هي معتبرة من وجهة نظر مقاييس الحياة العملية، فعلى هذا (لم يؤمن موضوعياً بجميع خواص المادة المدركة بالحس بل اعتبر بعضها خواصاً حقيقية موضوعية كالشكل والامتداد، والحركة، واعتبر بعضها الآخر انفعالاً ذاتياً كاللون والطعم والرائحة وما إليها من صفات)[١].

ونظرية (جون لوك) في المعرفة غير صحيحة ولم تكن منسجمة مع ما قرره سابقاً، من سيادة الحس على

---

(١) فلسفتنا، ص ١١٦، وص ١٥٩ ط ثالثة.

الإدراك البشري، ولهذا قد رد هذه النظرية سيدنا الشهيد الصدر ﵀ وكان رده يتلخص في جانبين:

الأول: إن (جون لوك) قد قسم المعارف إلى ثلاثة أقسام في تحليله للمعرفة، بينما هذا التحليل لا ينسجم مع نظريته في المعرفة مسبقاً حيث أنه هناك قد أرجع الإدراك البشري كله إلى الحس والتجربة وحتى المعارف الوجدانية والبديهية مثل مبدأ العلية، وعدم التناقض وغيرهما من المعارف البديهية ترجع في حقيقتها إلى الحس والتجربة، وهذا الممون للمعارف ليس له أي قيمة من وجهة نظر فلسفية في نظر (لوك) فكيف إذاً صح له أن يقسم المعارف إلى ثلاثة، وعلى ضوئها يمنح المعرفة الوجدانية، والتأملية قيمة فلسفية وموضوعية، دون المعرفة الناشئة من الحس، حيث سلبها الموضوعية، وما هذا إلا تهافت واضح بين الموقفين.

الثاني: أنه فرق بين خواص الأجسام، فبعض منها اعتبرها خواص حقيقية لتلك الأجسام ولها واقع موضوعي لم ينشأ من الإدراك، كالشكل والحركة، وبعضها الآخر ليس له هذه القيمة وإنما هو بسبب الانفعال الذاتي مثل اللون والطعم والرائحة.

إن (لوك) حينما جعل الحس هو منشأ إدراك الأشياء، لم يكن إذاً إدراك خواص الأجسام إلاّ عن طريق الحس، وبه لا يمكن أن يجعل فارقاً وعلى ضوئه يمنح قسماً منها قيمة موضوعية من وجهة نظر فلسفية، والآخر يُسلب هذا كله ما دام جميعاً مصدرها (الحس) الممون للإدراك ؟!

ومن هذا البرهان القاطع نعرف مدى سذاجة نظرية (لوك) التي بها سلب (المعرفة) كل قيمة فلسفية، وأن الصحيح هو عكس ما أثبته (لوك).

٣ – ديكارت[1] :

إن (ديكارت) هو من الفلاسفة العقليين، وخلاصة نظريته في المعرفة هي أنّه لخّصها في قسمين:

الأول: المعرفة العقلية الفطرية، ويقصد بها ما كان مصدرها العقل، لا من أسباب خارجية بواسطة الحواس، فمبدأ العلية، وعدم التناقض، ومعرفتي بوجودي، هذه كلها لم تنشأ من أسباب خارجة عن العقل، فعلى هذا كل معرفة فطرية منشأها العقل، تكون ذات قيمة موضوعية، وصادقة.

الثاني: المعرفة الفطرية، وهي المعرفة الحاصلة للانفعالات الذاتية بأسباب خارجية لا من العقل،

---

(١) ولد ديكارت في فرنسا بمدينة لاهاي ٣١ مــارس ١٥٩٦م، راجع المذاهب الفلسفية ص ٦١، د. محمد غلاب.

فالصوت، والرائحة، واللون، وغيرها من الأسباب الخارجية هي التي كونت في نفسي فكرة عن هذه الأمور المذكورة مثلاً، ولم يعترف (ديكارت) على مستوى الفلسفة لهذه المعرفة بأي قيمة، لأنها لا واقع لها، وإنما هي انفعالات في داخل النفس ليس إلاّ.

هذا التقسيم بلحاظ المعرفة، وأما بلحاظ الأفكار التي تطرأ على ذهن الإنسان فقد نوعها (ديكارت) وجعلها ثلاث طوائف:

الأولى: وهي ما عبر عنها بأنها أفكار غريزية أو فطرية، وهي أفكار طبيعية مثل فكرة – الله، والامتداد، والحركة، والنفس.

الثانية: الأفكار التي لم تكن طبيعية وفطرية، وإنما هي واردة على ذهن الإنسان، وغريبة عليه، ولكنها حدثت في ذهنه لأسباب خارجية فانفعلت بها النفس، فإن فكرة الحرارة، والبرودة، مثلاً لم تكن هي مغروزة في الإنسان وإنما جاءت بسبب ملامستي لهما ليس إلاً.

الثالثة: أفكار مختلفة، أو خيالية، ليست من الطائفة الأولى والثانية، فهي في الوقت الذي لم تكن طبيعية للإنسان، ليست أيضاً ناشئة من أسباب خارجية، وإنما تكونت لديه بسبب اصطناعه لها من أفكاره الذهنية، فهو يضع في ذهنه قبة حمراء معلقة في الهواء، ويتصور إنساناً له رأسين.

و (ديكارت) في حساباته الفلسفية لم يعتمد سوى الطائفة الأولى على صعيد المعرفة الموضوعية، وأولى اهتمامه بفكرة الله ، لأن هذه الفكرة لم تأت من لا شيء، فلا بد لها من سبب، وليس هو نفسه السبب، لأن الفكرة أي المسبَّب أكبر من السبب، فالله أكبر من الإنسان، فالزيادة نشأت من لا شيء، فإذاً لا بد وأن تكون قد نشأت من (الكائن اللا نهائي الذي يوازيها كمالاً وعظمة، وذلك الكائن هو أول حقيقة موضوعية خارجية تعترف بها فلسفة (ديكارت) وهي: (الله)[(١)].

(١) فلسفتنا، ص ١١٣، ص ١٥٦ ط ثالثة ١٤٣٠هـ .

واعتبر (ديكارت) أن جميع الأفكار في الطائفة الأولى كلها منبثقة عن الله وما كان كذلك فهو صادق وله حقيقته الموضوعية، (فإذا لم تكن صادقة كان تزويد الله للإنسان بها خدعة وكذباً، وهو مستحيل على الكامل المطلق)[١].

هذا وقد سُجلت بعض الملاحظات المدعومة بالدليل العلمي والبرهان العقلي، على بطلان فلسفة (ديكارت) منها على القاعدة الأولى لفلسفته المتضمنة قوله: (أنا أفكر فأنا إذن موجود) فقد أبطلتها الفلسفة الإسلامية، قبل مجيء (ديكارت) بهذه الفلسفة، وذلك على يد الشيخ ابن سينا، ونحن نعرض عن ذكر هذه الملاحظة روماً للاختصار[٢].

ولاحظ سيدنا الشهيد الصدر ﭬ على فلسفة (ديكارت) وما تحوي من تناقضات، ملاحظات عدّة تدلل

---

(١) فلسفتنا، ص ١١٤، وص ١٥٦ ط ثالثة.

(٢) راجع فلسفتنا، ص ١١٤، وص ١٥٧ ط ثالثة.

على عدم قيمة فلسفة ديكارت من الجانب العقلي والعلمي.

الأولى: إن ديكارت لم يعترف بسوى الأفكار التي خلقها الله في الإنسان كفكرةٍ الله والحركة والامتداد، وأنها ذات قيمة موضوعية تدلل على صدقها، ولو لم تكن كذلك، لكان الله قد خدعنا بها، والخداع مستحيل عليه تعالى.

إن قوله: الخداع مستحيل، هو ترجمة غير صحيحة لـ (الخداع قبيح) فإنه خلط بين القضية العقلية (الخداع قبيح) والقضية العملية (الخداع مستحيل) واستدل على صدق تلك الأفكار بالقضية العملية، مع أنه لم يعترف بصدقها ضمناً، حيث أنه لم يصدق إلا بأفكار الطائفة الأولى، فكيف صح لـ ديكارت أن يدلل على صدقها بقضية خارجة عنها لم تكن فلسفية؟!

الثانية: يوجد دور واضح في فلسفة ديكارت: (فإنه حين آمن بالمسألة الإلهية أقام إيمانه هذا على قضية

يفترض صدقها سلفاً، وهي أن (الشيء لا يخرج من لا شيء). وهذه القضية تحتاج بدورها إلى إثبات المسألة الإلهية لتكون مضمونة الصدق، فما لم يثبت أن الإنسان محكوم لقوة حكيمة غير مخادعة، لا يجوز لديكارت أن يثق بهذه القضية ويقضي على شكه في سيطرة قوة خدّاعة للفكر الإنساني)[١].

الثالثة: إن ديكارت خلط بين نفس (فكرة الله) و(الحقيقة الموضوعية التي تدل عليها)، فالذي يستحيل على الإنسان هو أن يخلق لفكرة الله حقيقتها الموضوعية، لأنها أكبر عظمة منه، فكيف يستطيع الضعيف أن يخلق القوي؟، وأما انبثاق (فكرة الله) في ذهن الإنسان ليست أكبر منه[٢].

وعلى أي حال بعد هذه الملاحظات المدعومة بالمنطق والدليل الصحيح، لا يمكن أن تكون فلسفة

---

(١) فلسفتنا، ص ١٥٨، الطبعة الثالثة، دار التعارف ١٤٣٠ هـ.

(٢) نفس المصدر، ص ١٥٨.

ديكارت عن المعرفة البشرية موضع اعتماد الباحثين الحقيقيين فضلاً عن أن تقدم لهم صورة حقيقية عن قيمة المعرفة.

وبهذا تبين لك على نحو الجزم والتصديق بما لا يدع شيئاً من الشك فشل نظريات الماديين والفلسفة الميتافيزيقية غير الإسلامية، في إعطاء الصورة الناصعة الصحيحة عن الخيوط الأولية لبناء صرح المعرفة وتكوينها، هذا من جهة.

وكذا من جهة ثانية لم تثبت في ميدان السباق العلمي للوصول إلى حلبة الصراع الفكري بجدارة في إظهار جوهر وقيمة المعرفة البشرية التي هي المعوّل، وهي الأم الحقيقية لكل بَنَاة ورؤى الذهن البشري الإنساني في كل زمان ومكان.

ولكن المذاهب المادية والفلسفية التي راحت تفتش على السؤال الملح جداً (ما هو ينبوع المعرفة البشرية؟) لم تعثر على جوابه الشافي والصحيح، فضيعت الغاية

والهدف الذي يساوي الأم لبناة الأفكار وشعلة العلم التي خص الله تعالى بها الكائن البشري دون غيره **﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾**[١]، **﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم﴾**[٢].

ولكن الفلسفة الإسلامية لم تحر جواباً في فتح هذا اللغز الــذي يحتضنه سؤال (ما هو ينبوع المعرفة البشرية؟). وقد اتضح لك ببراعة فائقة حقيقة وقيمة المعرفة البشرية، ومن أين يتقوم ويشاد صرحها العظيم، وما هي قيمة هذا الصرح الشامخ ومعطياته الثرية؟

وذلك بعد أن أطل عليك فجر الصدر الأول ﵺ بخيوطه الفضية الرقيقة التي انسابت إلى أعماق قلبك وسويدائه انسياب مطر نيسان إلى جذور نبات الربيع ووروده الحمراء.

وتمكن هذا القديس في هدوءه وانقطاعه إلى الله تعالى قبل أن يكون فيلسوفاً، أن يحمل بين جفنيه وأشفار

---

(١) سورة البقرة، الآية ٣١.

(٢) سورة البقرة، الآية ٣٣.

عينيه وأهدابها أشعة شمس الحقيقة الذهبية بعد فجره الصادق، فبدّد مخزون صدره اللامع وضيائه الساطع ظلمة الجهل الجاثم على قلب الحقيقة.

ولم ولن تبصر الحقيقةُ النورَ لمعرفة الخيوط الأولية لتكوين وبناء المعرفة البشرية وبروزها إلا من خلال طريق وهداية الفلسفة الميتافيزيقية الإسلامية الرصينة التي تستمد معالمها من ينبوع القرآن الكريم الذي لا ينضب ولا يخطئ والفطرة السليمة التي فطر الله تعالى الناس عليها ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[1].

وهذا ما لم نجده ونراه في غير هذه الفلسفة من الفلسفات انتصاراً ساحقاً قد خرجت به من ميدان الاستدلال بصوت قد ملأ الدنيا تحدياً (فلسفتنا).

تم التعديل والإضافات بعون الله تعالى ومنه على هذا السفّر الذي بين يديك يوم الجمعة في ٢ شهر رمضان المبارك ١٤٣١هـ في مدينة دمشق الشام السيدة زينب

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

عليه السلام الموافق١٣/٨/٢٠١٠ م على مسودته الأولى التي سطرها يراعي في ٩ ربيع الثاني عام ألف وأربعمائة وواحد ١٤٠١هـ للهجرة النبوية الموافق ١٩٨٠م في قم المقدسة إيران.

والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه سبحانه تقدست آلائه الذي ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1] .

ثم الصلاة والسلام على أفضل وأشرف مخلوق عرف ربّه محمد بن عبد الله رسول الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم وعلى آله وعترته الذين اصطفاهم الله لدينه بإمامتهم من نبوته لانقطاع وحيه، فنورهم من نوره مشكاة عليه وعليهم أفضل السلام وأزكى التحيات.

العبد المقصّر في حق مولاه
أبـو آدم
حسن علي الراضي (العبد لله)

---

(١) سورة العلق، الآيات: ٢-٥.

المصادر

- القرآن الكريم.

- نهج البلاغة – الإمام علي عليه السلام.

- فلسفتنا – السيد الإمام الشهيد الأول محمد باقر الصدر قدس سره.

- الجانب الإلهي.

- الإيمان والعقل.

- الأسس المنطقية – السيد الإمام الشهيد الأول محمد باقر الصدر قدس سره.

- معالم الفلسفة .

- مذاهب ومصطلحات فلسفية.

- منهج البحث عن المعرفة.

- فلسفة الإمام الصادق عليه السلام - محمد الجواد الجزائري، مؤسسة أهل البيت عليهم السلام بيروت ١٤٠٦هـ.

- المنهاج الجديد في الفلسفة العربية - عمر فروخ.

- تهافت الفلاسفة - أبو حامد الغزالي، ط دار الألباب ١٩٩٨م.

- تاريخ الفلسفة الأوربية.

- الوجـــود.

- مشكلات ما بعد الطبيعة.

- مصطلحات فلسفية.

- أفلاطون - غاستون مير، تعريب بشاره صافي.

- الأسفار - ملاّ صدر الدين الشيرازي.

- الرسائل - ملاً صدر الدين الشيرازي.

- مصارعة الفلاسفة.

- تجريد الاعتقاد – نصير الدين الطوسي ت ٦٧٢هـ، ط ١٤٠٧ هـ.
- المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة – د. محمد غلاب.
- الفلسفة الطبيعية – المؤلفة: ألن جكسن.
- الفلسفة عند اليونان – ط دار النهضة العربية ١٩٧٤م، دكتورة أميرة حلمي مطر.
- تلخيص المحصل.
- تاريخ الفلسفة اليونانية – يوسف كرم، ط دار القلم لبنان.
- المادية و المثالية الفلسفية.
- الفلسفة أنواعها ومشكلاتها.
- المنهاج الجديد في تعليم الفلسفة – محمد تقي مصباح، ط قم ١٤٢٠هـ .
- رسائل فلسفية – ط دار الأضواء، بيروت ١٩٨٠م.

- المحصل – محمد بن عمر فخر الدين الرازي، منشورات الرضي ط ١٩٩٩م.

الفهرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة